سلامة موسى

الأدب الإنجليزي الحديث



سلامة موسى للنشر والتوزيع
تراث من الكفاح الهادف

الأدب الإنجليزي الحديث

الطبعة الاولى ١٩٣٣

الطبعة الثالثة ١٩٧٨

مقـــدمة

هذا الكتاب هو عرض ونقد للأدب الانجليزى فى السـنين الاربعة الماضـية . وفى هذه المدة ظهر أدباء ثائرون على التقاليد فى هذا الادب ومجددون له. وقد حاولت أن أبين للقارىء العربى المغزى من هذا التجديد . وعندى أن التجديد فى الأدب هذا الأيام لا يعنى شيئا آخر سوى التجديد فى الحياة . وهذا هو ما نفهمه من المجددين الانجليز الذين نعرضهم فى الفصـول التالية . فان الادب الانجليزى يتصل بالحياة ويتأثر بها ، ويؤثر فيها . وهو ينتقد أسلوب العيش اكثر مما ينتقد أسلوب الكتابة . وهذا خلاف ما نجد من طبقـة الأدباء التقليديين فى مصر ، حيث الاهتمام كبير بالأسلوب الكتابى ، فى حين ليس هناك اهتمام اصلا بأسلوب العيش . فان الأدب التقليدى يعنى مثلا بأسلوب الجاحظ الكتابى فيحتـذيه ، ولا يعنى مثلا بأسلوب الفلاح المصرى فى العيش فينتقده ويطلب اصلاحه . وهو يكتب عن العرب ومجدهم وتاريخهم ، ولا يكتب عن مصر ونكباتها الحاضرة ، وما تعانيه من مظالم اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية. ولذلك فان أدبه سلفى ، هو أدب الكتب الذى يجعله يعيش وهو فى عزلة عن الوسط الذى يحيط به كأنه فى برج عاجى . وهو هنا يشبه أدباء القرون الوسطى فى اوربا والعالم العربى

ولكن الأدب الأوربى الحديث ، وخاصة الأدب الانجليزى ، هو ادب الحياة . ينتقد المعايش والغايات ويجعلهما موضـوعه

سواء فى القصة أو المقالة . وهو لذلك يتصل بأنواع النشاط البشرى كله . فللأديب رايه فى العلم والصناعة ، والاقتصاد ، والزواج ، والتعليم ، والصحافة . بل من الأدباء الانجليز ، مثل « برناردشو » من ينتقد النظريات الطبية . ومنهم من يدعو الى الايمان بدين جديد

والحق أن التجديد فى الأدب يشبه التجديد فى الفلسفة . فقد كانت الفلسفة القديمة تترفع عن درس الحياة الدنيا ، وترصد نفسها لدرس كنه الأشياء ، والفرق بين ما نعرفه عن الشىء وماهية هذا الشىء . وكانت تبحث الغيبيات أى ما قبل الوجود وما بعده . وهى فى ذلك كله تبتعد عن الناس ومعايشهم . ولكن الفلسفة الجديدة تدعو الى الكف عن البحث عن كنه الأشياء ، وتقتنع باستخدامها لمصلحة الانسان . وواضح ان هذا الكف ليس أبديا ، ولكنه اعتراف بالعجز عن فهم الغيبيات وايثار لبحث الشئون البشرية التى لا تتجاوز مستطاعنا

وكذلك الحال فى الأديب ، فانه كان يعتكف بين الكتب ويترفع عن نقد المعايش وغاية الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية . وكان الأديب يداب فى الاجترار ، ويعيش فى برجه العاجى لا يغتذى مما حوله ولكنه يغتذى بالمؤلفات القديمة . أما الآن فأن الاديب الجديد يكاد ينظر الى الأدب القديم نظرة « بيكون » الى العلوم القديمة . فهو يطالب التجربة والاختبار بنفس الروح الذى طلبهما به علماء النهضة . وذلك لأنه يشك فى قيمة المقاييس القديمة . ثم هو يستخدم ادبه ، كما يستخدم الفيلسوف الجديد فلسفته ، لمصلحة الانسان ، فيبحث اساليب العيش والاجتماع ، ولا يكاد يبالى اساليب الكتابة

ومع انى عرضت لطائفة من الادباء فى مدى السنين الاربعين الماضية ، وعالجت آراءهم بالشرح أو النقد أو التعليق ، فانى أرى الآن انه كان يكون أروح لى لو أنى قصدت الى واحد منهم فاقتصرت عليه بالدرس . وذلك لأن الأسهاب فى شرح فترة قصيرة ، هى

حيــاة الأديب ، يتناول من الدقائق المفيدة والتفاصيل الطــريفة ، ما يضطر الكاتب الى التجــاوز عنـــه حين يعمد الى موكب كامل من الادباء يصف أفراده مع الايجاز الـــذى قد يكون مخلا فى بعض الأحيان . ولكن القارىء العربى الذى يجهل الأدب الانجليزى يؤثر رؤية الموكب على رؤية الفرد ، وعنده أن الالمام بطبقـــة الأدباء المجددين خير من الاحاطة بواحد منهم . وهو على حق فى هـــذا الرأى ، وذلك لأن كلا منهم قد انتحى ناحية فى التجديد لم ينتحها غيره . والاسهاب فى شرح الادب لواحد منهم لا يقوم مقام التلخيص للكل

وعلى هذا الاعتبار يمكننى أن اقول أن هذا الكتاب هو فى حقيقته مقالة مسهبة ، أو هو المقدمة لدرس التجديد فى انجلترا . وأملى أن أوفق فى القريب الى درس واحد من هؤلاء المجـــددين لعله « برناردشو » . فيكون هذا الكتاب الراهن بمثابة الفـــرش للصورة ، يهىء للقارىء « البيئة التاريخية » والثقافية التى تكون منها هذا الأديب العظيم

فليقرا القارىء اذن هذا الكتاب على اعتبار أنه مقدمة لدرس التجديد الادبى فى انجلترا . وعليه أن يلتفت الى التفاعل المستمر بين الأدب والمجتمع ، وأن يقابل بين هذه الحال وبين ما نحن عليه فى مصر وخاصة عند ادبائنا التقليديين الذين قطعوا بين الحيـــاة الراهنة وبين ما يزاولونه من أدب قديم فى الاســـلوب والغـــاية والموضوع

(س . م ١٩٣٣)

قبل أن يقدم هذا الكتاب للطبعة الثانية عـــدت عليـــه قراءة وتنقيحا وزدت فيه ثلاثة فصول هى الأخيرة من الكتاب

(س . م ١٩٤٨)

التجـــديد فى الأدب الانجليزى

اذا ذكر الانجليزى عبارة « العصر الفكتورى » عنى بذلك نحو سبعين سنة قضتها انجلترا فى خمول يشمل الأخلاق والأدب بين سنة ١٨٣٧ وسنة ١٩٠٠ وهى المدة التى تولت فيهـا الحـكم الملكة فكتوريا

وقد كان هذا العصر عصر تجديد بل ثورة فى العلوم . ففيه ظهر « داروين » وقلب البيولوجية راسا على عقب . واستحالت نظرياته الى مذاهب تشبه المذاهب السياسية من حيث ابتعـاث الحماسة او المقت . وفيه ظهر « هربرت سبنسر » الذى قضى حياة طويلة يدافع عن مادية صريحة . ومن النـاس من يطلق عليـه وصف الفيلسوف ، مع انه أعدى أعداء الفلسفة ، اذ هو لا يؤمن الا بالعلم . وظهرت فى هذا العصر نزعات علمية كثيرة نقلت الطب من الكهانة والسحر الى التجربة ، ونقلت التربية من حفظ اللغتين الاغريقية واللاتينية الى درس الطبيعات والكيمياء

وكانت المدينة الانجليزية فى هذا العصر الفكتورى تنتقل من الزراعة الى الصناعة ، ومعايش الناس تتجدد من حيث اختـلاف الحرفة ، ولكنها تبقى مع ذلك جامدة من حيث العادات الاجتماعية متشبثة بعادات المجتمع الزراعى البائد

وهذا الجمود شمل الحياة الاجتماعية . والى الآن لا يزال الانجليزى يستعمل لفظة هى « المسز جرندى » التى تدلنا على هـذا

الجمود . فان هذه المسز أو السيدة هى ربة البيت الانجليزية التى كانت تحتم على اعضاء منزلها الوقار والاحتشام . بل التزمت . فلم تكن تسمح للفتاة بالخروج وحدها أو المزاح مع الشبان أو اتخاذ الملابس المختصرة أو ارتياء الآراء الجديدة . وكان البيت الانجليزى مدة ذلك العصر مثالا للجمود ، بل الكمود ، لوجود هذه السيدة المحترمة التى كانت تعتقد انها تصون الاخلاق بتزمتها .

والأدب بطبيعته يساير الحياة الاجتماعية . فان الأديب يكتب مقالته ، أو يؤلف قصته ، وهو يفرض جمهورا يسمعه . فاذا هو ارتأى رايا ، ينبو عن ذوق هذا الجمهور أو عقائده أو أخلاقه ، أكنه فى نفسه وكظمه وأبدى غيره مما يرضى هذا الجمهور . وقد يقال هنا ان حرية الراى تقول بغير ذلك . ولكن يجب على القارىء أن يعرف ان الجمهور يحد من حرية الراى مثلما تحد منها القوانين سواء . ولذلك كان جميع الأدباء فى العصر الفكتورى يحترمون آراء « المسز جرندى » ولا يخالفونها الا فى تواضع وذلة . ولهذا السبب اتجه الادب الانجليزى طوال القرن التاسع عشر نحو الصياغة اللفظية دون التفكير والاقتحام . فنحن اذا قرانا «ماكولى» المؤرخ راعنا اسلوبه المنمق وعبارته الالحنة المنغمة ، ولكننا نخرج منه بلا شىء من حيث التفكير . وكذلك الحال مع « سكوت » و « ثاكرى » القصصيين .

وقد يستطيع القارىء أن يذكر الشاعرين «شيلى» و «بيرون» وأن يصفهما بالثورة على التقاليد والعرف والنزوع الى حرية الاغريق . وهذا صحيح . ولكنهما عاشا وماتا وكأنهما غريبان عن انجلترا ، تقرأهما فئة صغيرة وتقتنى مؤلفاتهما ، وتدسها فى زوايا الحجر حتى لا تراها عين هذه السيدة المحترمة « المسز جرندى »

واستمر الجمود شاملا للمجتمع والأدب الى حوالى سنة ١٨٨٠ حين اخذت تتراكم أسباب الثورة أو التجديد وتستمد قوتها من العلوم الجديدة . فهذه الصناعة مثلا تبعث « كارل ماركس » على



لــورد
بيرون

تأليف كتابه فى ضرورة الاشتراكية مع شروح وافية مؤلمة فى فساد المجتمع . وهذا العلم الجديد «البيولوجية» يبعث «ابسن» الشاعر النروجى على تأليف درامة تصف « سلطان » الوراثة ، وكيف يرث الأبناء نقائص آبائهم فى الجسم والغريزة . ثم هذه المادية الجديدة تبعث الشاعر «سونبرن» على أن يؤلف القصائد فى الانتقاض على العقائد . ثم نرى دعوة الى الجمال يدعو اليها « اوسكار وايلد » من ناحية ، و « ولتر باتير » من ناحية أخرى ، مع اختــلاف بين الاثنين فى الوثن الجميل الذى يتعبد له كل منهما . فان الأول يحب باريس الحديثة ويتغنى بلياليها ، ويعرف للترف المادى قيمته فى الجســم الرائع ، والمــائدة المطهمة ، والحــديث البارع ، ولــذة اللحم . والثانى يحب اثينا القديمة ، ويذكر آلهتها وفلاســفتها ويساوى بين الاثنين ، ويرى فى تمثال الرب افلون أنموذجا لهذا للجمال الانسانى كما يرى فى شبان الاغريق نماذج اخرى لجمــال الآلهة !

وكل هذا يحدث على الرغم من آراء الجمهور أو شعائره الاجتماعية حتى ان « أوسكار وايلد » قضى سنتين فى السجن لانه عمل بما قال ، ونزل بالواقع الى ما كان يتخيله ، وجعل من الأدب حياة يعيشها على نحو تلك الحياة التى كان يعيشها أبو نواس ، وهى لا تختلف من أدبه ، كما لا يختلف خياله وواقعه وقصيدته من معيشته

ولكن ما نكاد نقترب من ١٩٠٠ حتى نجد الانفجار . ولهذا الانفجار أسباب خارجية واخرى داخلية . وقد ذكرنا هذه الأسباب الداخلية وهى تنحصر فى التقدم العلمى الذى عكس اشعته على الأدب ، والتقدم الصناعى الذى عكس أشعته على التفكير الاجتماعى . وكانت انجلترا طوال القرن التاسع عشر فى مقدمة الأمم فى العلم والصناعة . وتأثر الأدب من هاتين الناحيتين يرجع اليها وحدها

ولكن كان فى أوربا مؤثرات أخرى . ومن أغرب ما يذكر هنا ان أعظم هذه المؤثرات ، وهو الأدب الروسى ، لم يترك اثرا صغيرا او كبيرا فى انجلترا . وأدباء الانجليز جميعهم يعترفون بسمو هذا الأدب ، وانه الأدب الانسانى الرائع الذى لم يخلق مثله فى العالم، ومع ذلك ليس فيهم واحد ، ولا واحد ، قد تأثر به . ولست أستطيع ان أعزو ذلك الا الى أن البيئة الانجليزية (الاقتصادية الاجتماعية) كانت تختلف جد الاختلاف عن البيئة الروسية . ذاك أن المجتمع الروسى أيام القياصرة كان حافلا بالفوضى والشقاء والذل مما كان يحمل الأديب على أحد طريقين ، اما أن يثور ويلحد بالسلطة القيصرية والآلهية مثل « مكسيم جوركى » ، وأما أن يستسلم للقدر ، ويتعوض من البؤس المادى غبطة روحية مثل « دستوفسكى » . وكلا الطريقين غريب عن الذهن الانجليزى

أما سائر المؤثرات فيرجع بعضها الى « أبسن » الشاعر النروجى الذى يمكن أن يقال انه جدد الدرامة الانجليزية عن سبيل « برناردشو » . وقد أنكر « برناردشو » انه مدين لهذا الكاتب



شيللى

النروجى . ولكن الذى يقرأ الاثنين لا يستطيع الا الاعتــراف بأن الثانى مدين للأول فى فنه وآرائه وثورته على العرف ، ودعوته الى استقلال الشخصية ، ودعــوة المراة الى الرجولة ، ولا أقــول الاسترجال . ويقول « برناردشو » انه تلميذ لأديب انجليزى هو « صموئيل بطلر » . ولا شك فى أنه صادق فى ادعاء هذه التلمذة ولكنها ليست كل شىء فى تلمذته . فانه مزيــج من « داروين » و « نيتشه » و « ابسن » و « بيرون » و « برجسون »

ومن المؤثرات الحديثة القوية فى الأدب الانجليزى نجد لنظرية

« التحليل النفسى » والعقل الكامن اكبر الأثر . وهذا الأثر اكبر واعظم فى الشبان الجدد

ويمكن أن نقسم الأدب الجديد ، أو المجدد ، الى ثلاثة اقسام ، هى ثلاثة أطوار : طور الرائدين ، ثم طور المجددين ، وأخيراً طور الثائرين

وهذه التسمية نريد بها التوسل الى فهم التجديد ، ولا نريد بها التعيين . ففى الطور الاول نجد الرائدين وهم « سوينبرن » الشاعر ، وهو انما يثور على العقائد دون العرف الاجتماعى . ثم « صموئيل بطلر » استاذ « شو » ، وهو ثائر على العرف الاجتماعى . وكلاهما يدعو الى احترام الشخصية واستقلال الفرد استقلالا دينيا اجتماعيا . ثم تجد أنه يعاصرهما « اوسكار وايلد » و « ولتر باتير » وكلاهما يدعو الى الجمال دون الأخلاق الشائعة مع فرق سبق أن بيناه . ثم ندخل بعد ذلك فى طور المجددين ، فنجد « برناردشو » فى المقدمة ، لا يقنع بالانتقاض على الدين ، بل هو يثور أيضا على المجتمع والعرف . وهو ليس هداما يرضى بالهدم ويسكت عنده ، ولكنه يبنى ، فيدعو الى الاشتراكية واستقلال الشخصية ويرسم الطرق لاستخراج « السبرمان » . وكأنه يضع مقايسة ويقوم بعملية حسابية عن توليد خروف ابيض من نعاج سود . وهو كافر يعتقد فى نفسه أنه مؤمن ، ومادى يظن أنه روحى ، وعالم يمارس الأدب ويعلن احتقاره له ، وكاهن من كهنة البشرية الجديدة وجوهرة من جواهر الأدب الحديث

ومن المجددين أيضا « ولز » ، وهو يشبه « برناردشو » من وجوه كثيرة من حيث النظر العالمى للأدب وان كان هو من حيث المزاج أديب ، بينما « شو » عالم . و « ولز » الآن قوة من قوى الخير فى العالم ، وهو أكبر أثرا من عصبة الامم فى الدعوة الى الاخاء . وقد رضى بالتضحية بالفن من اجل الوعظ ، فانه يعظ ويعظ ولا يفتأ يعظ ويبين للناس كيف يتوقون الحروب والأمراض ، ويدلهم على وسائل الخدمة الانسانية . وقد حاول أن يؤمن ، واغاص فى

المحاولة ، الا انه فشل وعاد يدعو الى الكفر أو الالحاد فى غلواء بقوة ايمانه الالحادى الجديد

ثم ندخل فى طور الثائرين ، وهم الشباب الجدد الذين كابدوا من الحرب وبلاتها وعرفوا منها السفالة العميقة التى يمكن أن تهوى اليها الانسانية على الرغم من طلائها النظيف . وجميع هؤلاء الثائرين قد درسوا التحليل النفسى والعقل الكامن ، ونظرية التطور ، وخرجوا من هذا الدرس بجواهر تحيط بها أكوام من « الزبالة » . وقد خالفوا أوضاع القصة ، ورفضوا حتى عرف الكتابة بحيث ان الذى لم يتسلم مفتاحهم لا يكاد يفهم ما يكتبونه . ومفتاحهم هو الكامنة أو « العقل الكامن » وما فى داخل رؤوسنا من حشرات وأفاع . ولكنهم مع ذلك يعرفون أنه الى جنب هذه الحشرات والأفاعى طواويس زاهية وفراش جميل . ثم الى جنب هذا وذاك نزوع غامض فى النفس البشرية نحو الكمال . وابطال هذا الطور هم « لورنس » ، و « هوكسلى » ، و « جويس »

والمستقبل لهؤلاء على الرغم مما فيهم من ضعف وتردد ، بل من خلط واضطراب ، لأنهم قد حطوا على حقائق النفس البشرية وكشفوها وأبانوا عنها عارية ، ولم يستروا منها قبحا أو حسنا . فهم يتسابقون فى ميدان جديد جرى فيه « ولز » نفسه شوطا ثم كف عنه

وهذا كلام كله مختصر يحتاج الي اسهاب فى الشرح

جمـــود العصر الفكتورى

كان العصر الفكتورى ، أى الفترة الواقعة بين سنة ١٨٣٠ وسنة ١٩٠٠ ، يوهم بالجمود فى الأدب باعتبار الأدب فنا من الفنون الجميـــلة

وقد سبق هذا العصر شاعران كان ينتظر منهما ان يبعثا نهضة جديدة فى الأدب الانجليزى هما « شيلى » الــذى مات فى ١٨٢٢ و « بيرون » الذى مات فى ١٨٢٤ . ولكنهما ماتا وكأنهما لم يعيشا . واذا كان احد يقراهما هذه الأيام فذلك يرجع الى النهضة الحديثة التى ابتدأت حوالى ١٨٩٠

بدأ « شيلى » حياته الثائرة وهو طالب بتـــأليف كتـــاب فى « ضرورة الالحاد » وطرد من الجامعة لهذا السبب . ثم رحل الى دوبلين عاصمة ارلندا وهناك دعا الى استقلال ارلندا . ومات فى ســـن الثلاثين

أما « بيرون » فقد رحل الى بلاد الاغريق يؤلف القصائد فى الدفاع عن حريتها . وقصائده هى أناشيد الحرية يقرأها القارىء الى الآن بل يتغنى بها

ولكن « شيلى » و « بيرون » ، كما قلنا ، ماتا دون أن يتركا لهما خلفا للعصر الفكتورى يدعو الى الحرية . ومضى هذا العصر على طوله كأنه عصر الظلام ، يقرأ فيه الناس تاريخ « ماكولى » فيعجبون بأنفسهم وامبراطوريتهم ومجدهم وعظمة برلمانهم . وهذا الماكولى

يمكن القارىء الآن ان يعرف حقيقة واحدة عنه تكفيه للحكم عليه . فقد ذكر عن الهندى انه لا يقبل الرقى . وكاد يقول انه جبل من طينة اخرى غير الطينة التى جبل منها الانجليزى . وهــذا هو الــرأى الاستعمارى الذى مايزال يقول به « كبلنج » الشاعر . والقــارىء المصرى يعرف الان انه ليس « كبلنج » ولا « ماكولى » الانجليزيان جديرين بأن يحل احــدهما ســيور حذاء « غاندى » أو « نهرو » الهنــديين.

فالام يعزى هذا الجمود فى العصر الفكتورى ؟

يعزى الى شيئين،أولهما الروح المادى الذى انتشر بين الانجليز بتدفق الثروة عليهم ونجاحهم فى الاستعمار . والثانى الروح الدينى الذى ورثه الانجليز عن النهضة الطهرية .

ففى العصر الفكتورى ازداد استعمال الآلات فى المصــانع ، وكادت انجلترا تختص بالصناعات الآلية . فكانت تغزل وتنسج ، وتصنع المعادن ، وتصدر مصنوعاتها الى أوربا باختراعها الآلات البخارية والاعتماد على الفحم ، وقد اثرت اثراء فاحشا ، واخــذ أسطولها يفتح لها الأسواق بالاســتعمار . فكانت دلــوال العصر الفكتورى فى نهضة اقتصادية بعثت فيها الروح المادى والاكبار من شأن الترف والنجاح المالى على نحو ماترى الآن فى الولايات المتحدة الامريكية التى تقوم بالدور الثانى للنهضة الاقتصادية الآلية . وهذا النظر المادى وما يعقبه من نجاح مالى هما أقوى العــوامل لتثبيط الحركات الادبية

اما العامل الثانى فهو النهضة الدينية التى فشت فى انجلترا واتخذت شكلا خاصا يقرب من النزعة الوهابية فى جزيرة العرب ، نعنى بها تلك الحركة الطهرية « بيوريتانزم » التى تدعو الى التقشف وكراهة الفنون والابتعاد عن الملاهى . وهــذه النهضــة هى التى اخترعت الملابس السود الكابية للرجال ، وهى التى مازلنا نــرى أثرها حتى فى رجل مجدد مثل « برناردشو » حين يمتنع عن تنــاول طعام اللحم او الخمر ، وحين يميل الى الزهد . ولا يمكن الدرامة

أو القصة أن تنجح امام هذا الروح الذى لا يجيز للمؤلف أن يترخص مثلا فى رواية الحب والغرام

ونشأ من هذين العاملين ، أى مادية النهضة الاقتصـــادية ، وروح التقشف الدينى ، نزوع فى الامة الى لزوم العرف وكراهة البدع ، لأن المجتمع الانجليزى كان مستقرا متفائلا ، مؤمنا بالتقدم الذى أحدثه ارتقاء الآلات الصناعية وتوسع الصناعة والاستعمار فاستقر الأدب الانجليزى لذلك وجمد

ولكن فى اواخر القرن التاسع عشر شرع المجتمع الانجليزى يتقلقل بالتعطل والتفاوت الفاحش بين الغنى والفقر . وشرع الأدب يتقلقل أيضا . وأصبح القصصى ، كى يتجنب النقد ، يعمــد الى خياله ويبتعد من الواقع ما استطاع ذلك . وحركة التجــديد التى قامت عقب العصر الفكتورى هى فى لبابها ثورة على هــذا الأدب الخيالى الفكتورى السخيف الذى لم يعد ينطبق على حقائق الحياة

وقد راينا كيف ان الروح المادى قد أتلف ذهن المؤرخ «ماكولى» فجعله ينسى انسانيته ويحتقر الهنود . ويبعثه زهو الثروة والنجاح المالى والتوسع الامبراطورى على ان يؤلف تاريخا للانجليز يرفعهم فيه الى مقام الآلهة ويزهى فيه بعظمتهم

والى جانب « ماكولى » نجد رجــلا آخر يغمــر تاريخ الملكة فكتوريا بشخصيته ، هو « كارليل » الــذى مات فى ١٨٨١ . فان الروح الدينى اتلف ذهنه كما أتلف الروح المادى ذهن « ماكولى » ، فاستحال واعظا بعد ان كان يرجى منه ان يكون أديبا ، وخاصة اذا اعتبرناه وقد بدأ حياته بتأليف كتاب عن الثورة الفرنسية (١٨٨٩) وكان الطراز الأعلى للأدب عنده ذلك العظيم الألمانى « جيتــه » . فاذا كان درس الثورة الفرنسية ورجال الذهن الذين هيأوا لهــا ، ثم التتلمذ لجيته لا يخرج للناس أديبا عظيما ، فلا بد أن يكون هناك عند « كارليل » حاجز صفيق لا تستطيع بصيرته أن تنفذ منــه . ولنضرب لذلك مثلا مقابلة بين « جيته » و « كارليل » فى موضــوع معين عالجه كل منهما

فقد عالج «جيته» موضوع الواجب ، وكيف يجب أن نعمل فى الدنيا فلا نترك ساعة من حياتنا حتى نملأها بعمل مفيد . ولما مات ابنه الوحيد حزن عليه ولكنه لم يجزع ولم يستسلم للكمود والهمود، بل نفض عن نفسه الحزن وهب الى العمل . ولكن ماذا كان يقصد اليه « جيته » من الواجب وكراهة التعطل ؟

كان يقصد من ذلك الى أن تزداد شخصيته عرفانا وقوة فيزداد بذلك حرية واستمتاعا . وكان يرى فى الجهل تقييدا ، فكان يدرس العلوم والآداب بروح الطالب . وكان يرى فى الدعة والانكفاف تضييقا لشخصيته ، فكان يختبر كل شىء ، ولا يبالى وهو فى الثمانين أن يعشق . ولا يمنعه درسه من أن يقوم بأعمال ادارية وسياسية . وقد اندغمت ثقافته فى شخصه ، فكان يقبل على الدنيا ويلتذ الحياة ويستغل ما كسب من اختبارات ومعارف كى تقوى شخصيته ، وكأنه يرى نفسه مركزا أو محورا للكون . فنحن يجب علينا ، فى رأى «جيته» أن نكبر من شأن العمل ونقبل عليه ، ونؤدى واجبنا فيه كى نستكمل به شخصيتنا ونزيد استمتاعا بالدنيا وفهما لشئونها

ولكن « كارليل » يدعو الى الواجب لغاية أخرى انحدرت اليه من المبادىء الطهرية التى شاعت فى انجلترا وصبغتها بالروح الدينى ، فهو يقول :

« نحن هنا على الأرض جنود نحارب فى قطر غريب ، ولسنا ندرى الغاية المقصودة من هذه الحرب، ولسنا فى حاجة لأن ندريها ، وانما علينا أن نؤدى ما يجب تأديته . وعلينا أن نؤديه كالجنود بالطاعة والشجاعة وطرب البطولة »

والفرق واضح بين الاثنين ، « جيته » سيد أديب و « كارليل » عبد واعظ . وقد تستطيع أن تفضل « كارليل » على « جيته » ، وأنت بذلك تفضل النهضة الدينية الانكارية الانكفافية على النهضة الأدبية الاقدامية الاستمتاعية ، كما يمكنك أن تقول أن الوهابيين

فى كراهتهم للفنون والترف والاستمتاع والالتذاذ ، خير من الباريسيين الذين لا يبالون ما يفعلون مما يخالف التقاليد . وأنت حر فى هذا النظر . ولكن يبقى بعد ذلك أن تعترف أن فى باريس فنونا جميلة وأدبا رائعا ، ولكن ليس فى الرياض ، عاصمة نجد ، شىء من ذلك

والطهريون فى انجلترا هم وهابيو الديانة المسيحية . وقد صبغوا الأدب الانجليزى بصبغة التقشف فى العصر الفكتورى

التفسير الاقتصادى للأدب الانجليزى

الأدب ظاهرة اجتماعية مثل سائر الظواهر الاجتماعية كالحكومة والتعليم والعادات والأخلاق والعقائد . والمجتمع ينهض فى كل زمان ومكان على أساس اقتصادى ، اى أن الطراز الذى تتبعه الأمة فى انتاجها الزراعى والصناعى يستتبع طرازا معينا آخر من الاجتماع . ولذلك يختلف المجتمع فى أمة زراعية من المجتمع فى أمة صناعية . ويختلف أيضا الأدب بين الأمتين

بل هناك طرز مختلفة من الانتاج الزراعى تحدث طرز اخرى مختلفة من النظم الاجتماعية . ففى مصر زراعة تقارب النظام الاقطاعى فى القرون الوسطى . وقد نشأ على هذا النظام مجتمع معين نراه على اوضحه فى مجلس الشيوخ .وفى دنمركا نظام زراعى تعاونى قد أحدث مجتمعا ديمقراطيا . وفى الولايات المتحدة نظام زراعى آلى ، يختلف كل الاختلاف من النظامين السابقين ، ولذلك نستطيع ان نقول أن الزارع الامريكى مدنى وليس ريفيا

والانسان ، بمحض عمله اليومى فى الانتاج والارتزاق ، تتكون له عواطف ، وتنشأ له من هذه العواطف عقائد وآراء وأخلاق . ولذلك فهو يعيش وفق إنتاجه . أى ان مجتمعه يتخذ طرازا معينا يتفق وطراز الانتاج . وبكلمة أخرى ، ينبنى الاجتماع على الاقتصاد

وإذن نستطيع أن نفسر العقائد والآراء والمذاهب والأخلاق والآداب تفسيرا اقتصاديا فى الأمة.

فالبيئة الزراعية فى مصر ، بما يفشو فيها من فاقة سوداء ، ومن جهل يجعل الفلاح عاجزا عن علاج هذه الفاقة ، تحمل فلاحنا على الاستسلام للقدر ، أى لليأس ، وأيضا على التمسك بعقائد جامدة ، وأحيانا على المغامرة بالجريمة لمعالجة فقره.

والبيئة الزراعية التعاونية فى دنمركا تحدث فى الفلاح أو المزارع الدنمركى عواطف الحب والرضى بالمساواة وتنتهى فى القمة بحكومة ديمقراطية تخدم الشعب.

والبيئة الزراعية الآلية فى الولايات المتحدة الامريكية تجعل المزارع رجلا « صناعيا » ينظر الى عزبته (مزرعته) كما ينظر الثرى الى مصنعه فى المدينة . وعواطفه وأخلاقه وعقائده وآراؤه جميعها لا تختلف مما نجد عند ساكن المدينة.

واذا انتقلنا من البيئة الزراعية المصرية مثلا الى بيئة صناعية، مصرية أيضا ، وجدنا اختلافا فى الأخلاق والعادات والآراء والعقائد بين أفراد البيئة الأولى وبين أفراد البيئة الثانية.

ذلك لأن حرفتنا التى نرتزق بها هى جزء كبير من معيشتنا . وهى تكيف معيشتنا . وكلنا يحس وهو فى الريف ان حرفة الفلاح هى معيشته ، وأن معيشته هى حرفته ، لأن بيته ، مثل حقله ، هو مكان انتاجه.

والأدب يتبع أيضا بيئتنا الاجتماعية التى تنبنى على أسس من البيئة الاقتصادية . فحيث تكون الزراعة ، على الاسلوب المصرى وسيلة الانتاج ، يكون الأدب محافظا بل جامدا « جمود الفلاحين » ويكره التطور . ولا يؤمن الأديب بحرية المراة ، أو بحق الشعب فى الحكم الديمقراطى ، أو بسائر الآراء العصرية التى ترد الينا من بيئات اجتماعية أوربية نهضت على انماط اخرى من النظم الاقتصادية . ولذلك نجد فى مصر أن النزعة الكلاسية تغلب على النزعة الرومانتية . فنحن نكتب بلغة كلاسية اتباعية ونحن الى

القديم فى الأدب ، ونكتب عن ابطـاله ، ونكره الابتــداع . لأن استقرار الوسط الزراعى عندنا قد انعكس فى اسـتقرار الآراء والعقائد فى الأدباء عندنا . وقد كان المجتمع العربى أيام العباسيين زراعيا أيضا ، فكان الأدب تقليديا ، دينيـا ، قـرويا (من حيث الاستسلام للقدر وضيق الآفاق) ولم تظهر فيه نزعات رومانتيــة ابتداعية الا القليل جدا

ثم انظر الى الأدب فى أوربا وأمريكا الآن . فان المجتمعات التى تعيش فى طرز من الانتاج الصناعى قد استحدثت طرزا من الثقافة العلمية تلائم هذا الانتاج . هذه الثقافة العلمية التى لا يكاد يحتاج اليها وسط زراعى . ولذلك تجترىء شعوب هاتين القارتين وتقتحم المستقبل ولا تستسـلم للقــدر . وقــد أحــدثت الأزمات الاقتصادية التى نشأت من الانتاج الآلى للمصانع ازمات نفسـية انعكس أثرها فى الأدب الأوربى الامريكى . فكان التقلقل والدعوة الى آراء وعقائد جديدة بشأن الحكومة ، والمــرأة ، والعــامل ، والفضيلة ، والرذيلة ، والدين

وعندما تنتقل الأمة من الزراعة اليدوية الى الصناعة الآلية ، كما حدث فى انجلترا فى القرن التاسع عشر ، أو بالأحــرى فى أواخره ، نجد صراعا بين الأدباء التقليديين (الزراعيين) وبين الأدباء المجددين الثائرين (الصــناعيين) اذ يدعــو الأولون الى الاستمساك بالقديم فى قواعد اللغة والتفكير ، والايمان ، والعادات الاجتماعية،ويدعو الثانون الى الابتداع والتغيير فى كل شىء تقريبا . وتنتهى الغلبة بالطبع للثانين ، لأن هؤلاء الثــائرين يدعــون الى مقاييس جديدة للأخلاق ، والى حريات جديدة للمجتمع . وكلتاهما ، المقاييس والحريات ، انما دعا اليها تغير الانتاج من الزراعــة الى الصناعة . بل من الصناعات اليدوية الصغيرة الى الانتاج الآلى العظيم

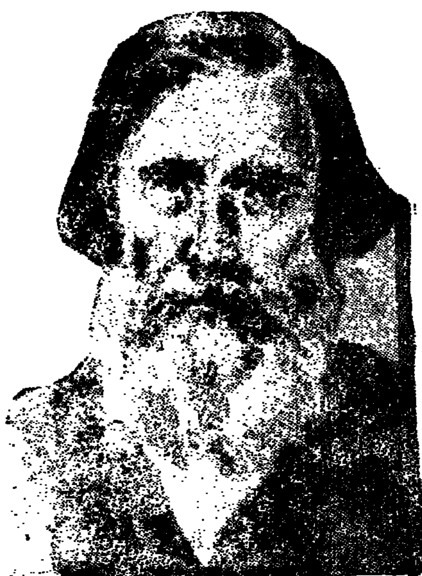
وبين هذين الفريقين يقف فريق يبالغ فى جموده ، أو هو يفر من الواقع فيرتد الى التاريخ القــديم وكأنه يســير التهقرى نحو

المستقبل . ونحن فى مصر نرى كثيرا من ادبائنا قد يئسوا من مواجهة الحاضر والمستقبل ووجدوا فى الحضارة العصرية ما يبعثهم على القلق ويثير فيهم المخاوف ، فعمدوا الى تاريخ العرب قبل الف سنة يؤلفون عن أبطالهم ويدعون الى التمثل بهم . وقد راى الانجليز مثل ذلك ايضا فى كل من « تشسترتون » و « بيلوك » و «ارسكين» الذين دعوا الى العودة الى القرون الوسطى ولكنهم بالطبع فشلوا وتغلب عليهم اولئك الأدباء الذين بصروا بالقوات الاقتصادية الجديدة التى غيرت المجتمع ودعت الى اخلاق جديدة تلائم هذا التغير

الرجعيـــون الثائرون

ساد الوسط الاجتماعى فى القرن التاسع عشر فى انجلترا روح مادى يدفع بالناس الى التكالب على جمع المال . وقد بعث هـــذا الروح انتشـــار الآلات وقيامها مقام الأيدى ، فسهل بذلك جمع المال بتراكم الارباح ، وقيام المصنع الكبير الآلى مقام عشرات بل مئات المصانع الصغيرة اليدوية

فالى القرن التاسع عشر كانت الصناعات لا تزال فى أيـــدى الصانعين ، كل صانع يستقل بمصنعه . فهو نفسه عامل وصانع . فلم يكن هناك طبقة كبيرة من العمال لا تملك سوى الاجور ،وطبقة اخرى صغيرة من المموّلين تملك المصانع الضخمة . وكانت الصناعات اشبه أو أقرب الاشياء الى الفنون كما هو الحال الى الآن فى النجارة . فالنجار ــ المصرى على الاقل ــ هو فنان كما هو صانع ، يتـــأنق ويلتذ عمله وينشد منه جمالا ومصلحة . ولكن العـــامل فى المصنع الآلى الكبير الذى يضم بين جدرانه نحو مائة أو الف عامل لايمكنه ان يمزج بين الفن والصناعة ، لأنه يختص بجزء من العمل ، كأن يقنع بصنع الكوتشوك من الاتومبيل ، أو بدهنه بالطلاء ، أو فرشه وتنجيد مقاعده او نحو ذلك . فاذا قابلنا بينه وبين النجار الفينا هذا الثانى خالقا يبتكر ويخرج من بين يديه شيئا تاما وله مادة أصلية فما يزال به حتى يخرجه خلقا سويا قد انطبع بشخصيته . فالعامل هنا فنان يحب عمله ويلتذه وهو يرقى به . ولكن العامل فى المصنع



روسكين

الكبير لا يصنع سوى جزء صغير من السلعة التى يقتسم صنعها العمال جميعا . فهو عامل لا اقل ولا أكثر ، وهو أشبه بالآلة منه بالانسان

ولم تكن الصناعة اليدوية تؤذن بتراكم المال فى أيد قليلة كما هى الحال الآن فى الصناعات الآلية التى جمعت رءوس الأموال فى طبقة من المولين وجعلت جميع الصناع عمالا مأجورين

وكان القرن التاسع عشر ، أو العصر الفكتورى ، فى انجلترا قرن الانتقال من الصناعات اليدوية الى الصناعات الآلية . وهـذا الانتقال نجده الآن على اشده يوشك ان يتم ويبلغ أوجه فى الولايات المتحدة التى يصنع أحد مصانعها نحو عشرة آلاف أتومبيل فى اليوم. وهذه الولايات المتحدة هى الرائدة الآن للعالم كله فى هذا الاتجـاه وفى ايجاد حضارة صناعية تمحو ما قبلها من حضارات زراعية أو يدوية

وفى كل انقلاب نجد فريقين، فريق السلفيين الآسفين المتشبثين بالماضى ، ونحن نسميهم رجعيين أو جامدين اذا كنا نكرههم ، وفريق الراغبين فى الحال الجديدة الداعين اليها ، ونحن نسميهم المجددين اذا كنا نحبهم . أما اذا كنا نكرههم ، فاننا عادة نتهمهم بالالحاد ، والاباحية ، والمادية ، والهوس

وهذا هو ما وقع فى انجلترا فى أواخر القرن الماضى . فقد ظهر ادباء يدعون الى النزوع الى التجـديد وآخـرون يدعون الى الاستمساك بالقديم . ونحن هنا نقصر الكلام على اثنين من عظماء الرجعية فى انجلترا هما « جون روسكين » و « وليم موريس »

وكلاهما أفاد بثورته على روح التجديد فى القرن التاسع عشر لانه اوضح اضرارا كادت تخفى على الناس من حيث انتشار الروح المادى وتغلب الصناعة على الفن ، وايثار السرعة على الاتقـان . وقد اخذ كل منهما فى دعوة الناس الى ايثار المصنوعات اليدوية على المصنوعات الآلية ، وكراهة العلم وتقبيح النهضة الاوربية العلمية وامتداح القرون الوسطى . وأخلص كل منهما لدعوته اخلاصـا عظيما هو السبب الأساسى للفائدة التى جنـاها وما زال يجنيها الناس من مؤلفاتهما بل من حياتيهما

لما بلغ «روسكين» شبابه وجد فى لندن جماعة تدعى « أخوية الداعين الى ما قبل رفائيل » وهم جماعة من الرسامين عمدوا الى النهضة الاوربية فقبحوها ، وطعنوا فى العلم ، ودعوا الفنانين الى ايثار الروح الدينى للقرون الوسطى . ولم يأتوا بطائل ، فتشتتوا. ولكن دعوتهم كانت بذرة لقح بها ذهن « روسكين »

وقد لا يكون بين كتاب الانجليز من أحسن الكتابة بهذه اللغة مثل هذا الرجعى العظيم « روسكين » . فقد جمع ما فى اللغة من رقة وحلاوة وجمال فحواها فى اسلوبه . وما تقول فى رجل يصفه عدو له بالجنون (هو ماكس نورداو) ثم يعترف له بأنه يمكنه أن يصف السحاب فى خمسين أو مائة صـفحة يقرأها القـارىء فلا يسأمها بل يطلب المزيد

ترك « روسكين » بلاده ورحل الى البندقية ، مدينة القرون الوسطى ، وهناك الف كتابه « أحجار البندقية » الذى يقول فيه :
« ان البناء القوطى فى البندقية هو ثمرة الايمان الطاهر والفضيلة العائلية »

وأيضا : « ان البناء الحسن هو التعبير الظاهر عن الحال السليمة للمزاج وعن الشعور الأخلاقى »

ثم يمضى بعد ذلك فى نثر رائع فخم فيشرح جميع الاعمال الفنية مدة النهضة ، اى عقب القرون الوسطى ، ويصفها بأنها ثمرة الغدر وفساد الاسرة وسقوط الاخلاق

وهذا كله هراء بليغ . فان البناء أبعد الاشياء عن الدلالة على الاخلاق . وهذه مبانى المماليك فى القاهرة ، فانها من الفخامة والجمال بحيث تناقض الحياة الاجرامية التى عاشها كثير من هؤلاء. وتاريخ البندقية التى ما تزال قصورها القديمة قائمة ، هو تاريخ الدسائس الدموية ، والسفالات العظيمة التى ارتكبها اصحاب هذه القصور . وانما كره « روسكين » النهضة لانها كانت الاصل فى الروح العلمى الذى ساد أوربا وأخذ مكان الروح الدينى . وكان رجلا متدينا لا يطيق النزعات الجديدة التى تكتسح كل ما أمامها ،فلم يكن فى وسعه سوى السباب . وهو سباب أنيق يسمع له الناس، لأنه يتأنق فى عبارته ، ثم يغضون لهذا التأنق عن سخافاته . فلقد بلغ به السخف ذات مرة أن علل الكوارث التى تقع فيها بريطانيا بسخط الله عليها

ولكن « روسكين » كان مخلصا فى دعايته ، يحض الناس على التمسك بالدين ، وكراهة المصنوعات الآلية ، والرجوع الى الصناعة اليدوية ، والابتعاد من الروح المادى . ورث نحو ١٥٠٠٠٠ جنيه من والديه فحرمها على نفسه ولم ينفق منها مليما ، ووقفها على الأعمال الخيرية وعاش قانعا بما يجنيه من قلمه . واتجه نحو الاشتراكية ، أو بالأحرى الميول الاشتراكية ، فأسس كليات للعمال

فى الجامعات ، ورفع من شأن العمل حتى كان يأخذ الطلبة من أبناء الاغنياء فيؤلف منهم فرقا لتعبيد الطرق

ومهما قلنا فى « روسكين » وانتقصنا من قيمة الحملة التى حملها على الروح الحديث فاننا يجب أن نعترف بأنه يحسن التفكير حين ينتقص لنا من شأن السرعة . واننا مثلا عندما نركب القطار نستفيد سرعة فقط ، بينما نحرم فوائد السفر والتفرج التى نجنيها من الجواد أو من العربة التى تجرها الجياد . فهنا شىء للتفكير . وخاصة فى هذه الأيام حيث أخذت الطائرة مكان الاتومبيل والقطار وحيث تنذرنا بالسفر فى السكائك وليس على الارض

أما « وليم موريس » الرجعى العظيم الآخر ، فان جهاده أبقى واثره اعظم . فانه لقح الصناعات بالفنون . وكان هو و «روسكين» سواء فى كراهة الآلات ، ولكنه كان يمتاز على « روسكين » بأنه يرى الواقع ويسلم به ويقتنع باصلاحه . فقد كان فى ذات نفسه ، مثلا ، يحب خط اليد ويؤثره على حروف الطبع ولكنه كان يرى آلة الطباعة شيئا واقعا لا فرار منه . فكان يقتنع بأن يكتب حروفا جميلة يسبكها ويقدمها لآلات الطبع فتتحسن الطباعة . وكان يرى أن الروح المادى يطغى فيحمل البنائين على أن يبنوا المنازل من أسخف المواد ويزينونها بالبهرج من الاثاث ، فصار هو نفسه يصنع الاثاث . والف شركة لهذه الغاية لا تزال حية الى الآن ، غايتها الجمع بين الفن والصناعة ، او الجمال والنجارة . ولهذا الرجعى أثره الجميل فى صناعة الآنية والسجاجيد وورق الجدران

وحارب الروح المادى بأن صار اشتراكيا طوبويا ، يؤلف بل يبيع بنفسه الكتب والرسائل الاشتراكية على قوارع الطرق . والاشتراكية الطوبوية هى اشتراكية الأمانى والاحلام التى سبقت الاشتراكية العلمية الماركسية التى تنهض على وفرة الانتاج الآلى

والآلة مع كل ذلك منتصرة ، تطغى علينا وتسوقنا بل تدفعنا دفعا عنيفا لا ينجح فى وقفه مثل « روسكين » أو « موريس » اللذين قاوما تيار التطور عبثا . ولكنهما نجحا فى تنبيهنا الى وجوب العناية بالفن وتلقيح الصناعات الآلية به

بواعث التجديد

تبعث على التجديد بواعث كثيرة . ويصيب التجديد ميادين النشاط البشرى جميعها سواء أكانت ثقافية أم حضارية

فقد يهتدى الذهن البشرى الى فكرة جديدة تكشف عن المغزى لطائفة من المعارف بحيث تجعل المعرفة الميتة ثقافة . كفكرة التطور مثلا اهتدى اليها « داروين » فكانت وما تزال نظاما انتظمت به المعارف البيولوجية . فمن هنا يعد « داروين » مجددا فى البيولوجية كما يعد « فرويد » مجددا فى السيكولوجية لانه اهتدى الى فكرة « الكامنة » أو العقل الكامن . أو كما يعد « ولسون » مجددا فى السياسة لانه اهتدى الى فكرة عصبة الأمم

ويصيب التجديد الحضارة كما يصيب الثقافة . فحياتنا الحضارية فى مصر قد تجددت فى نصف القرن الماضى بأكثر مما تجددت ثقافتنا . وذلك لأننا اصطدمنا بظروف جديدة اضطرتنا الى اتخاذ الحضارة الغربية والتسليم بها . فنحن ننتقل بالقطار والاتومبيل ، دون الجمل أو الحمار . ونحن نؤسس المؤسسات فى التعليم والقضاء والبريد والادارة على غرار الأنظمة الاوربية دون الانظمة التى ورثناها من العرب أو من الشرق . ونحن فى كل ذلك مجددون لا يكاد يوجد بيننا رجعى يقول بأفضلية الجمل على القطار ، او خطة الالتزام القديمة فى جباية الضرائب على الخطة الحاضرة فى فرض الضرائب

واعظم ما يبعث على التجديد هو تبدل الوسط . فاذا فرضنا مثلا أن جزيرة العرب قد حدث لها تبدل فجائى فانتقلت من اليبس والجفاف الى البلل والمطر ، واستحالت صحراؤها القاحلة أرضا زراعية ، فاننا ننتظر من العرب عندئذ ان يقلعوا من البداوة والرحلة ويأخذوا بأساليب الزراعة والاقامة . ومن يفعل منهم ذلك يعد مجددا ومن يجمد ويلزم البداوة يعد رجعيا لا يستجيب للوسط الجديد .

فالثقافة التجديدية فى مثل هذه الحال يجب أن تدعو الى الأخذ بالزراعة وتعلم أساليبها والنزول على أخلاقها ، وهجران البداوة والاقلاع عما بقى منها فى المعيشة والأخلاق .

وقد حدث فى القرن التاسع عشر فى انجلترا ما يشبه هذا الانتقال . فان الحضارة الزراعية أخذت تتراجع وتتقلص بينما الحضارة الصناعية كانت تأخذ فى التوسع والغارة عليها . وهذه الحضارة الصناعية هى حضارة الآلات ، وما تستتبع من تبدل فى المعيشة والاخلاق . وهذا الانتقال كان يدق على افهام الناس ، لا عامتهم فقط ، بل خاصتهم ايضا . وكان هناك قليلون يفهمونه ويدركون مغزاه ويكرهونه ويقاومونه مثل « جون روسكين » و « وليم موريس » ، اذ أن كليهما دعا الى ترك الآلات والرجوع بالناس الى العصور الوسطى والقناعة بالعمل اليدوى

وقد قلنا ان هذه الحضارة الصناعية كانت تغير على الحضارة الزراعية مدة القرن التاسع عشر . وهى ما تزال الى الآن فى هذه الغارة لما تتم لنفسها النصر . فالدعوة التجديدية القائمة الآن فى انجلترا ، كما نفهمها من مؤلفات « برنارد شو » او « هـ . ج . ولز » أو كما نراها احيانا على أبلغها فى مؤلفات « برتراند روسل » تدعو الى أن نستبدل من ثقافتنا بمثل ما استبدلنا من حضارتنا . لأن احماض العلم قد أذابت العقائد القديمة وزعزعت الاستتباب النفسى الذى كان يسود فى العصر الفكتورى . فيجب لذلك ان نأخذ بمنطق جديد يتفق ومبادىء الحضارة الجديدة ، ولا نرسف فى اغلال

التقاليد وندفن عقولنا فى الماضى . وهؤلاء الكتاب وكثير غيرهم قد جعلوا من ادبهم وسيلة لأن نعمد الى معيشتنا وأخلاقنا فننفتح فيهما بما يوافق العصر الجديد عصر العلم والآلات والمادية

ولننظر الآن فى الوسط الزراعى وما يقتضيه . ثم نعود الى الوسط الصناعى فنبحث وجوه الفرق بينهما وهى الوجوه التى اخذ ادباء انجلترا المجددون فى شرحها وحث الانجليز على اعتمادها دون سواها

فقد كان الناس الى القرن التاسع عشر يعيشون على مبادىء الحضارة الزراعية . وكانت الصناعات يدوية ، العامل فيها أشبه بالمالك منه بالأجير . والمدن صغيرة كأنها القرى ، والانتقال بطىء لا يساعد على انتشار المصنوعات . وتراكم رءوس الاموال فى بقع معينة هى المصانع الحديثة والمدن الكبيرة . ولمثل هذه الحضارة اخلاق تلازمها هى الأخلاق التى ما زلنا نراها عندنا مثلا حيث لايجوز للمرأة ان تستقل وتعمل لحسابها الخاص ، وحيث الايمان بالقضاء والقدر على اقواه ، وحيث الديمقراطية اسم بلا مسمى ، وحيث نرى العقائد والتقاليد تأخذ مكان الرأى والاستنباط ، والنزول على العرف مكان الاستقلال والانفراد . وحيث تحترم الرابطة العائلية وتوضع فوق كل اعتبار ، وحيث للدين الحرمة الأولى فى تفكير المفكرين

كانت هذه حال انجلترا فى أوائل القرن التاسع عشر . ولكن رويدا رويدا اخذت الصناعة تطارد الزراعة ، والمدن تجذب اليها السكان فيهجرون القرى والريف . والصناعات اليدوية تموت ، ويحتشد العمال فى المصانع الكبيرة . وأخلاقنا هى ثمرة الوسط الذى نعيش فيه ، وهى تبع للاحوال الاقتصادية التى تلابسنا . ومن هنا نشأ النزاع بين الاخلاق التقليدية القديمة وبين الوسط الصناعى الجديد . ومن هنا ظهر التصادم بين المحافظين الذين كانوا يرغبون فى الأخلاق القديمة فيطلبون من المرأة أن تكون زوجة فقط ، ومن الاولاد طاعة الآباء والارتباط بهم ، ومن الفقراء القناعة

بالفقر ، ومن المفكرين النزول على العقائد الدينية والتسليم ، وبين المجددين الذين كانوا يرغبون فى اخلاق جديدة توافق البيئة الصناعية الجديدة . وهى اخلاق تدعو المرأة الى ان تكون لها شخصية مستقلة تعيش لنفسها أولا فترقى وتستمتع ، ثم اذا ارادت بعد ذلك فلتكن لزوجها وأولادها وامتها . كما تدعو العامل أن يواجه الوسط الصناعى الجديد بنظام جديد يحقق له الاشتراك فى الحكم والانتاج هو النظام الاشتراكى ، بل كما تدعو المفكرين الى النزول على مبادىء العلم والتسليم بنظرياته دون التسليم بالعقائد الموروثة او العرف الاجتماعى . واذن احتاج المجددون الى المصارحة واظهار الجمهور البريطانى على عيوب العرف والاخلاق القديمة والدعوة للاخلاق الجديدة . وأصبح الأدب الانجليزى اجتماعيا فى نزعته ، يحاول الاديب أن يبتكر عن سبيله القيم الجديدة للاخلاق كى يلائم بين البيئة الصناعية وبين معايش الناس

هذه هى المهمة التى أخذ الادباء الانجليز فى تأديتها للجمهور الانجليزى ، وما زالوا فى سبيل هذه التادية الى الآن

بعض الأجانب فى الأدب الانجليزى

تجمع بين الأقطار الاوربية جامعة من الحضارة والثقافة . وهى جامعة تربطها فى العموميات من المزاج والنزعة ، اذ هى تشترك فى تراث الحضارة الرومانية والثقافة اللاتينية والاغريقية . وقد كانت جميعها أيام القرون الوسطى أمة واحدة تدين بالمسيحية وتكتب باللاتينية ، وان تعدد الامراء الحاكمون

ولكن لكل واحد من هذه الأقطار سماته الخاصة التى تميزه من الاقطار الاخرى فى حضارته وثقافته . فالنزعات السائدة الآن فى الأدب الفرنسى تختلف جد الاختلاف عن النزعات السائدة فى الادب الانجليزى . ويشتد هذا الاختلاف أحيانا حتى لنسمع من بعض المصريين الذين تثقفوا بالأدب الفرنسى أن الانجليز لا يعرفون الادب . وهو انما يزعم ذلك لبعد الشقة واختلاف العطر والنكهة بين الأدبين . ولانه يجد فى أدب الانجليز غير ما ألف وتعود فى أدب الفرنسيين . وليس هذا الاختلاف غريبا اذ هو يدل على الحيوية والاستقلال عند الامم الاوربية المختلفة ، من حيث أن كل أمة تنزع الى مثلياتها وتتخذ طرقا خاصة دون أن تأبه لما عند غيرها من هذه المثل والطرق فتحتذيها .

ولكن التفاعل لا ينقطع مع ذلك . فان الافكار تتلاقى وتتصارع ويحدث منها الامتزاج أو التنافر . وقد تأثر الأدب الانجليزى لهذا السبب بالنزعات الأدبية فى أوربا ؛ وان كان هو فى الارجح أقل

الآداب الاوربيـــة تأثرا بغيره . ونحن نجد فى الأدب الجـــديد ثلاثة رجال لهم الأثر الاكبر فى التفكير عامة وفى الادب خاصة عند الانجليز

واول هؤلاء هو « برجسون » الفرنسى ، فان له أثرا واضحا فى تجديد الافكار الدينية والمذاهب الداروينية. فقد استطاع أن يؤثر فى العالم الادبى ، وكادت طعنته ان تكون الطعنة النجلاء التى وقف دونها المادى حائرا ، ان لم نقل مهزوما . وايمان « برنارد شو » يكاد يكون كله منقولا عن « برجسون » الذى يقول ان الحيـــاة هى الخالقة ، وانها فى صراع مستمر مع المادة . وانها دائبة فى التطور. واذا كان هناك شىء من التجديد الدينى الغيبى الآن ، أو اذا كان ينتظر شىء منه فى المستقبل ، فانه لن يعدو هذه الافكار البرجسونية

وثانى هؤلاء الاجانب هو « فرويد » النمسوى فقـــد انسلت نظرياته الى الأدب الانجليزى ، وأصبح « العقل الكامن » موضوع الادباء الجدد مثل « لورنس » و « جويس » وغيرهما . وعمـــاد الادب الجديد الذى أعقب الحرب الكبرى هو التحليل النفسى والعقل الكامن

أما ثالث هؤلاء فهو « ابسن » وهو بلا شك اعمقهم اثرا فى الادب الانجليزى بل الادب الاوربى ، وخاصة أدب الدرامة . فان «برناردشو» نشأ عليه وشدا منه وبنى لنفسه شهرته الاولى عـــلى طريقتـــه . والدرامة الانجليزية كلها تعترف لأبسن بالاثر الكبـــير وتخطو فى سبيله ، وتتخذ طريقتـــه كلما استطاعت ذلك . ولذلك يحسن بنا هنا أن نلم بطرف من حياته ومؤلفاته

كان « أبسن » كاتبا نروجيا ، التحق بالتمثيل واحترف ادارة احد المسارح ، ثم رحل عن بلاده الى ألمانيا حيث عاش سائر عمره يؤلف للمسرح النرويجى ، فتترجم جميع مؤلفاته الى اللغات الحية فى أوربا ، فتنبعث الحياة للمسارح وتجعل الدرامة موضوع المناقشة بين الادباء ، بل بين الصحفيين والجمهور . وقد استطاع «ابسن» أن يجعل المسرح بدراماته ميدانا للافكار والآراء ، لانه خص الدرامة بغاية لم تكن تعرفها ، هى البحث الاجتمـــاعى ونقد العـــادات.

والاخلاق والسياسة . وقد سبق أن تناول « موليير » هذه الابحاث في فرنسا في القرن الثامن عشر . ولكن الذين خلفوه في فرنسا ، بل في اوربا ، لم يستأنفوا عمله ولم يتجهوا نحو غايته فبقيت الدرامة راكدة لا تنتعش ، قد انقطعت عن الحياة أو كادت . فلما جاء « ابسن » أعاد لها هذه الصلة وجعل المسرح ميدانا لنقد المعايش وبحث الاخلاق . وكانت كل درامة من دراماته « مسألة » اجتماعية تحتاج الى الحل

والدرامة الابسنية هي قصة عائلية ، تحتوى مشكلة وتنتهي بالرجاء أو باليأس . وغاية المؤلف في جميع دراماته أن يكون لابطاله «شخصية» ، فهم ينتحرون اذا لم يستطيعوا تحقيق هذه الشخصية أو هم يتركون لهذه الغاية أهلهم وأولادهم

ولننظر في احدى دراماته نظرة المام كي نقف منها على الغاية التي رمى اليها . ففي « بيت عروس » نجد زوجة تحب زوجها حبا عميقا ، ويبدو لها من مسلك زوجها انه هو أيضا يحبها . وقد دفعها هذا الحب الى أن ترتكب جريمة التزوير كي تحصل على مبلغ من المال تقدمه لزوجها حتى يرحل عن المدينة ويستطيع التعالج في جو أوفق . وتنوسيت هذه الجريمة التي لم يكن زوجها يعرف عنها شيئا ، ولكن شخصا آخر كان يعرف هذا السر المؤلم وقد استطاع ان يهدد به هذه الزوجة

ويقف الزوج على السر فيغضب ، وهو في غضبه لا يذكر سوى نفسه والعار الذي سيلحقه من فضح هذه الجريمة التي ارتكبتها زوجته . يذكر نفسه وكرامته وشرفه ولا يذكر شيئا من ذلك عن زوجته . ويريد « ابسن » أن يقول ان الزوجة هي « عروس » يلعب بها الزوج وانها ليست رفيقته . وقد يكون في تصويره بعض المبالغة . ولكن ليس هناك شك أيضا في انه قد وضع للمتفرجين مسألة تستحق المناقشة والحل وهي :

هل يجب على المرأة أن تكون انسانا أولا ، أو يجب عليها قبل كل شيء أن تكون زوجة وأما ؟

هذه هى المسألة التى يعمد « ابسن » اليها فيحلها ، أو يوضحها ، فى جراة صارخة موجعة . ومن الحوار التالى يتضح القارىء موقف الزوجين ، بل موقف الحياة العائلية بين القرنين القرن التاسع عشر والقرن العشرين

وهذا الحوار يأتى عقب اكتشاف الزوج لجريمة التزوير التى ارتكبتها زوجته وغضبه لكرامته . ثم ارتياحه الى أن ذلك الشخص الذى هددهما بالفضيحة قد ارسل خطابا يرجع فيه عن عزمه على فضح هذه الجريمة . وعودة الزوج « هلمر » الى مصالحة زوجته . ولكن الزوجة « نورا » تترك الغرفة وتعود وقد استعدت لترك المنزل :

هلمر : ما هذا ؟

نورا : لقد مضى على زواجنا ثمانى سنوات . الا يخطر ببالك اننا نحن الاثنين ، زوجا وزوجة ، نتحدث لأول مرة حديثا جديا ؟

هلمر : ماذا تعنين بالحديث الجدى ؟

نورا : فى هذه السنوات الثمان ، بل قبل ذلك منذ تعارفنا ، لم نتبادل الحديث عن موضوع جدى

هلمر : وهل كان من الممكن ان اخبرك كل يوم عن همومى التى لم تكونى تستطيعين مساعدتى على تحملها ؟

نورا : لا اتكلم عن هموم العمل . انما أعنى اننا لم نقعد معا مرة كى نتحدث فى جد ونصل الى الاصول والاعماق

هلمر : ولكن يا عزيزتى نورا ، ماذا كنت تفيدين من مثل هذا الحديث ؟

نورا : هذا اذن هو ما ظننت فيك . انك لم تستطع قط أن تفهمنى . هلمر ! لقد ظلمت كثيرا . ظلمنى ابى أولا ، ثم ظلمتنى انت بعده

هلمر : ما تقولين ؟ نحن الاثنان ؟ نحن الذين احببناك أكثر من أى انسان ؟

نورا (تهز رأسها) : أنت لم تحبني قط . وكل ما عندك أنك يلذ لك أن تظن أنك تحبني
هلمر : ما هذا الذي أسمعه منك يا نورا ؟
نورا : هذا هو الحق أقوله لك . لما كنت ببيتنا ، عند أبي ، كان يخبرني عن آرائه في الأشياء فآخذها عنه . وكنت اذا اختلفت معه انكرت أن لي رأيا آخر خشية أن يكره مني أن يكون لي رأي . وكان يدعوني باسم « العروس » وكان يلعب معي كما كنت أنا ألعب وأنا طفلة مع عروسي . وعندما جئت كي أسكن في دارك . .
هلمر : ما أغرب هذا التعبير الذي تعبرين به عن زواجنا . . . !!
نورا : أعني اني أخذت من يدي أبي الى يديك . وانت شرعت ترتب كل شيء كما تهوى وكما يشاء ذوقك . وأخذت أنا عنك هذا الذوق ، أو ادعيت اني أهوى ما تهوى . ولست أعرف أيهما فعلت ، أو لعلني فعلت هذا مرة ، وذاك مرة أخرى . وعندما أراجع نفسي أراني كأني قد عشت هنا كأني امرأة مسكينة لا أملك شيئا . أجل ! لقد عشت أؤدي لك الحيل لانك ترغب في ذلك . لقد جنيت أنت وأبي علي ، واليكما أنتما الاثنين أعزو هذه الحال ، وهي أن حياتي هباء لا قيمة لها
هلمر : أي شيء أبعد عن العقل من هذا الكلام ؟ ما أقل شكرانك ، ألم تكوني سعيدة هنا ؟
نورا : لم أكن سعيدة ، وانما كنت مرحة فقط ، وكنت أنت تلاطفني ، ولكن بيتنا هذا لم يكن سوى ملعب . فقد كنت لك زوجة تلعب بها ، كما كنت عند أبي طفلة يلعب بها ، وكما أصبح أطفالي لعبتي بعد ذلك . وكما كنت أطرب عندما كنت تلعب معي ، كذلك كان يطرب الاطفال عندما كنت ألعب معهم . وهذا زواجنا . . .

هلمر : انت مصيبة فى بعض ما قلته ــ مع ما فى قولك من المبالغة ــ ولكن سـيكون المسـتقبل غير الماضى . سينتهى اللعب ، ثم تبدأ الدروس

نورا : اى دروس ؟ دروسى أم دروس الأطفال ؟

هلمر : دروسك ودروس الأطفال ، يا عزيزتى نورا

نورا : ولكنك للاسف لست الرجل الذى يستطيع تربيتى كى أكون الزوجة الحقة له

هلمر : وتقولين هذا ؟

نورا : ثم انا ، كيف أستطيع أن أربى الاطفال ؟

هلمر : نورا !

نورا : الم تقل وقت غضبك أنك لا تثق بى لتربية الأطفال ؟

هلمر : وقت الغضب نعم ، كيف تهتمين بذلك ؟

نورا : ولكن الواقع انك كنت محقا لانى غير كفء لهـــذا الواجب . وعــلى انا واجب يجب ان اقوم به أولا ، وهو ان اجتهد واربى نفسى . ولست انت الرجــل الذى يمكنه مساعدتى فى ذلك . فعلى أن اقوم بنفسى بهــذا العمل ، وهــذا هو السبب الذى يدعونى لان اتركك الآن

هلمر (يهب واقفا) : ما تقولين ؟

نورا : يجب ان اقف وحدى وأعتمد على نفسى اذا كنت أريد ان افهم نفسى كما افهم كل شىء حولى ، ولهذا لايمكننى أن أبقى معك بعد ذلك

هلمر : نورا ، نورا !

نورا : سأخرج الآن من البيت

هلمر : تتركين بيتك وزوجك واولادك ، ولا تبالين ما سيقوله الناس عنك ؟

نورا : لا ابالى ما سيقوله النـــاس ، انما افعـــل ما اراه ضروريا

هلمر : هذا عجيب ، أهكذا تهملين أقدس الواجبات ؟
نورا : وما هي اقدس واجباتي ؟
هلمر : وهـل أنت في حـاجة الى أن أخبرك ؟ أليست هي واجباتك نحو زوجك وأولادك ؟
نورا : عندي واجبات لا تقل عنها قداسة
هلمر : اي واجبات هذه ؟
نورا : واجباتي نحو نفسي ....
هلمر : انت زوجة وام قبل كل شيء
نورا : لست أصدق هذا الآن . لاني أعتقد اني انسان قبل كل شيء كما انت انسـان . أو عـلى الاقل يجب أن اجتهد حتى أصير انسانا . واني أعـرف أن معظم الناس يؤيدونك في رأيك ، وان مثل رايك هذا يقال به في الكتب ، ولكني لن اقتنع بعـد الآن بما يقـوله الناس ... أو بمـا تقوله الكتب .. اذ يجب عـلي أن افكر بنفسي ، وافهم

* * *

هذا شيء من الحوار الـذي يدور بين الزوجـين . وهو كما يرى القارىء ينتهي بأمراة ، هي زوجة وأم ، بأن ترفض الزوجية والأمومة كي تبدأ في تربية نفسها حتى تكون انسانا

ولكن كيف يكون ذلك ؟

ان الدرامة تنتهي بايصاد الباب بعد خروجها . ولـكن الى ين تذهب « نورا » ؟ وما هو برنامجها في تربية نفسها ؟

ستذهب بلا شك الى أحد المصانع أو المكاتب كي تتعلم وتعمل وتكون لنفسها شخصية جديدة كانت الى الآن فانية في الزوج والاولاد . ولابد أنها ستلقى المصاعب وتكابد المشقات في هذا الطريق الوعر الجديد ، ولكن هذه الشخصية التي تنشـدها لن تتربى الا بهـذه المصاعب وبما تتعلمه من الفشل والنجاح

وهذه هى المراة الاوربية الجديدة . و « ابسن » هو لذلك حجر الزاوية فى الأدب الاوربى الجديد ، وخاصة فى الادب الامريكى والإنجليزى . و « نورا » التى كانت خيالا واملا يتحرك على المسرح فى ۱۸۹۰ هى الآن حقيقة ، نرى من اشباهها الآلاف فى لندن ، ونيويورك ، وبرلين ، كما نرى أن المسرح ، بها وبأمثالها ، قد اصبح مدرسة لدرس الحياة

وقد الف « جرانت الين » الأديب الانجليزى قصة « المراة التى فعلت » على هذا النمط ، اى ان بطلة القصة امراة ترفض الزواج الذى يحرمها من استقلالها ، ثم تعيش كادحة تعمل وتكسب فتربى شخصيتها وتصون حريتها . وهو بالطبع كان متأثرا بدرامة « بيت عروس » . وقد الف « فكتور مرجريت » الأديب الفرنسى المعروف قصة « الفتاة الفلامية » متأثرا أيضا بالغاية التى رمى اليها «ابسن»

والمراة الأوربية عامة ، والمراة الامريكية والانجليزية خاصة، قد أصبحت تتجه نحو استقلالها وتكوين شخصيتها كما تتجه نحو الزواج والعائلة . نعنى بذلك ان استقلالها لم يمنعها من الزواج وانما رفعها من الانثوية الى الانسانية

اثنـــان من الرواد

ليس من الممكن أن نذكر جميع الادباء الذين ساهموا فى حركة التجديد الانجليزى . وكل ما نستطيعه أن نذكر الأعيان . وقد يكون فى الترجمة المفصلة المســهبة لواحد من هؤلاء الأعيــان ما يبصر القارىء بالنزعات التجديدية ، ويقفه على أسبابها ، أكثر مما يكون فى ايراد التراجم المختصرة ، وسرد الاسماء والمؤلفات

ولكن الاقتصــــار على ترجمة أو ترجمتين ، مــنع ما فيه من الفائدة اذا عمدنا الى الاسهاب والاستيفاء ، لابد أن يرافقه نقص فى الاحاطة بجملة المجددين . وهو نقص نضطر اليه على ســبيل التضحية

فلابد انا ونحن نذكر الحركة التجديدية أن نهمل « دكنز » و «سونبرن» و «أوسكار وايلد» وأمثالهم من رجال العصر الفكتورى الذين ساهموا بالقليل او الكثير فى الحركة التجديدية . والشــعور بالتضحية يشتد هنا عند ذكر « دكنز » . فان هذا الكاتب العظيم استجاب للوسط الصناعى الجديد بقصته « أيام الشدة » . وحسبك أن تقرا له هذا الوصف للبلدة الصناعية « كوكتاون » كى تعــرف مقامه فى ميدان الاصلاح الاجتماعى ، وكيف أنه استطاع أن يجعل أدبه وسيلة للخدمة الانسانية . قال :

« كانت بلدة كوكتاون قد بنيت من الاجر الاحمر ،
او من الاجر الذى كان يكون أحمر لولا طبقــة الدخان

والرماد التى تكسوه . ولكن كوكتان كانت بهذه الطبقة بلدة تبـدو بجدرانها الحمراء السـوداء فى الوان غير طبيعية ، كأنها وجه رجل متوحش قـد طلاه بالادهان والاصباغ

« وكانت حاشدة بالآلات والمداخن السـامقة التى كانت تنساب منها ثعابين الأدخنة ، يتحوى بعضـها على بعض فلا نهاية لتحويها ولا افتكاك

« وكانت بها قناة سـوداء ، ونهر تجرى ميـاهه حمراء بصبغة كريهة الرائحة . وكانت بهـا اكوام من المبانى التى تملأها النوافذ . ثم كان بها عجيج وارتجاف طوال النهار حيث كان كباس الآلة البخارية يهبط ويصعد كأنه راس فيل قد أصابه الجنون . وكانت بها عـدة شوارع كبيرة ، كل منها شبيه بالآخر . يقطنها ناس كلهم متشـابهون . يدخلون بيوتهم ويخرجون منها فى وقت معا ، ويؤدون عملا واحدا . وكان كل يوم عندهم يشبه يوم أمس ويوم غد ، وكل عام يشبه السـنة الماضية والسنة القادمة . . . . »

ولم يصف أحد من الكتاب الأثر السيء الذى احدثته المصـانع الآلية الكبيرة فى المدن كما وصفه « دكنز » . ومن هذه النبذة يمكن القارىء أن يرى التفاعل بين الحياة والأدب ، وكيف أن الاديب يخدم المجتمع بأدبه ويكشف عن مساوىء الصناعة . و « دكنز » من هذه الناحية يعد رائدا فى الأدب الانجليزى الجديد . وقد ترك تراثا لمن خلفه فى القصص هو « القصة الاجتماعية » التى ترى على أوفاها عند « ولز » . بل هذه النبذة التى نقلناها عن « دكنز » لو أنها قرئت فى غير أصلها لأخطأها الناقد ونسبها الى « ولز »

وهنا يجب أن نقف بالقارىء قليـلا كى نقول ، ان اسـمى الامثلة من القصص أو الدرامة الانجليزية انما هو وسيلة لخـدمة الاجتماع ، وليس غاية فى نفسـه . وهنـاك مثل « ميرديث » أو



دكنز

« والتر باتر » أو « أوسكار وايلد » ، ممن نظروا الى الفن نظـرة « فرنسية » وجعلوا الجماعة غاية الأدب كما هو راى « بودلير » او « أناطول فرانس » . ولكن هذه النظرة بعيدة اجمالا عن روح الأدب الانجليزى . وان كنا نعثر عليها من وقت لآخر ، ونجد منها القليل من الامثلة

وقد كان « أناطول فرانس » يقول عن الأدب انه لا يتـوخى الحقائق ، لأن توخى الحقائق انما هو من شأن العلم ، أما الادب ففن من الفنون . والقصة يجب ان تكون كالصورة أو التمثـال ، ليس وراءها غاية . وقد سار هو على هذا المذهب . وهو مذهب جدير بالاحترام . واذا صـدق ، فكل ما نقوله عنـدئذ ان الأدب الانجليزى يتجه بكل صراحة نحـو العلم . والواقع اننا نجـد فى انجلترا عددا كبيرا من الادباء الذين يصـح لنا أن نسميهم أيضـا علمـاء

ومن هؤلاء « صمويل بطلر » وهو الرائد الذى يقول « برنارد شـو » انه تعلم منه . فانه مـزج بين الأدب والعلم ، وألف فى القصص كما ألف فى نظرية التطور . وهو يعد من الثـائرين على

عصر الفكتــوری ، من حيث تنديده بالحيــاة العــائلية والعرفه لاجتماعی والكنــائس . أما فی العلم فيمــكن أن نری فيــه رأی برجسون » الفرنسی ، فانه كافح « داروين » فی نظره الآلی للحياة ابی الا أن يری فيها — أی الحياة — قصدا تقصد اليه ، بل غاية سامية تسمو اليها . فعند « داروين » ان الاحيــاء تتطور لأنهــا صطدم بحوادث يموت فيها العاجز ويبقى القوی المحتال . فالتطور اذن خبط عشواء أو محض مصادفة . ولكن « بطلر » لم يســتطع بول هذه النظرية وأبی الا أن يؤمن بأن فی الحياة حكمة ترشـــد لأحياء نحو غاية سامية قد لا نستطيع نحن أن نعيهــا من الآن ، لكن يمكننا أن نلمحها من سيادة الانسان علی سائر الكائنات . بعبارة أخری نقول ، أن « داروين » مادی فی تفسيره للتطور أما بطلر » و « برجسون » فروحيان ، يؤمنان بالقصـــد والغاية فی لحياة .

أما قصص « بطلر » فمكتسبة من اعتباراته ، ولذلك ننقل عنه هذه النبذة التی كتبها عن والده :

« لم يحبنی كما انی لم احبه . ولم اذكر وقتا لم أكن اخشاه واكرهه ، وكم من مرة كنت الين واقول لنفسی أنه رجل طيب لا بأس به ، ولكننی لا اكاد افعــل ذلك حتی يعود فيصدمنی ويملأ نفسی مرارة نحوه . ولست اشك فی انی سلكت معه مسلكا يبعثه علی الاستياء منی كما انی لست اشك فی انی ارتكبت معه ذنوبا كثيرة ، كما انی لست واثقا من أن اخطـــاءه كانت اكثر من اخطائی . ولكن الواقع ، بصرف النظر عن هذه الاخطاء انی بقيت سنوات طويلة لم يمر بی يوم الا وكنت افكر فيه مرات ، وأری فيه الرجل الذی يقف ضدی ويری الجانب السیء بدلا من الجانب الحسن فی كل ما أقول او أعمل »

هذا الوسط العائلی هو الـــذی حاربه « بطلر » بقصـــته

« طريق اللحم » وهو الذى حاربه بعد ذلك « برنارد شو » . اى تلك العائلة الانجليزية التى كانت تتسلط على الشاب والفتاة وتستبد بهما وتعوق حريتهما

والشاب أو الفتاة سواء فى بريطانيا أو الولايات المتحدة هما الآن اكثر فتيان العالم استقلالا عن الاسرة . ومن المبالغة ان نقول ان هذا الاستقلال يعزى الى الادب ، لانه فى الحقيقة يعزى الى الوسط الصناعى الجديد الذى جعل المرأة تعمل فى المصنع او المكتب وتستقل بمعاشها عن أهلها ، ولا تكاد لذلك تبالى طاعة الأبوين . وكذلك هو يعزى الى وفرة الملاهى الجديدة مثل الاتومبيل والسينماتوغراف . وكلاهما عمل لتفكيك الاسرة الانجليزية . ولسنا نجد الآن أبا يشبه ذلك الذى نكب به « صمويل بطلر » . فان مؤلفات « بطلر » تدلنا على مقدار الجمود فى ذلك العرف الاجتماعى أو الاخلاق الانجليزية مدة العصر الفكتورى ، وهو عرف كان يفشى الشقاء فى الاسرة

لقد ذكرنا هنا « دكنز » وكيف سخط على الوسط الصناعى الجديد ووصفه أدق وصف وأبشعه . ثم ذكرنا « صمويل بطلر » وكيف كره الحياة العائلية وأنكرها . ولكن القارىء المصرى لايمكنه الا ان يعترف بأن هذا الوسط الصناعى كان هو العلاج لجمود العائلة الانجليزية ، لانه فك قيودها ونقض الاستبداد الأبوى بالحرية الجديدة التى لقيتها الفتاة الانجليزية فى الصناعة والملاهى الكثيرة التى جعلت الشاب ينشد سلواه خارج البيت

ان للصناعة وجوها سيئة ، ولكن لها وجوها أخرى حسنة . ومن حسناتها هذه الحرية التى يتمتع بها الآن الشبان والفتيات فى العالم المتمدن . لأن العائلة البطريركية القديمة ، عائلة الزراعة حيث الأب يعول ويسود ، قد بادت . واخذت مكانها العائلة التى يكسب افرادها عيشهم من المصنع ، فيستقل الشاب بدخله كما تستقل الفتاة بكسبها . وهذا الاستقلال الاقتصادى قد أدى الى استقلال اجتماعى أخلاقى زعزع العائلة الى حد ما

المنحطـــون فى الأدب الانجليزى

فى أوائل هـــذا القـــرن نشر « ماكس نورداو » كتـــابا عـــن « الانحطاط » تناول فيه جماعة كبيرة من الادباء والشعراء بالنقد ، واتهمهم بأنهم انما نزعوا نزعاتهم الخاصة لانهم منحطـــون . فهـــم مجانين أو قد اقتربوا من الجنون . ونزعاتهم انما هى نزعات العقل المضطرب المفتون . ولذلك فان كل ما يدعون اليه من فلســـفة أو اصلاح ليس فى حقيقته ، وعند التأمل ، سوى هراء الابله أو هذيان المحموم

وقد ذاع هذا الكتاب لأن التهمة طريفة والرأى بدعة ، وكلاهما يلفت النظر ويبعث على التأمل . وقد مضى على نشر هـــذا الكتاب نحو خمسين سنة تكفى لتأييد نظرياته أو ادحاضها . والواقع الذى نراه الآن انها قد ادحضت جميعها وأن هؤلاء المنحطين الذين ذكرهم « ماكس نورداو » اما أن الجمهور قد تناساهم لانهم لم يكونوا من القدرة والكفاية بحيث يستحقون دوام الذكر ، واما انهم قـــد ثبتوا لأن كفايتهم لم تزعزعها التهـــم التى وجههـــا اليهم هـــذا الطبيب الاديب . وحسب القارىء أن يعرف أن « نيتشه » و « تولستوى » و « ابسن » وضعوا فى مقدمة المنحطين عنده ، وهم الآن من زعماء النهضة الاوربية

ولكن قبيل « ماكس نورداو » ، أى فى أواخر القرن التاســـع عشر ، ظهرت طائفة من الكتاب فى فرنسا وانجلترا يجـــوز لنا أن نسميهم بالمنحطين . بل لقـــد عرفت الطـــائفة الانجليزية نفســـها وارتضت هذه الصفة وأطلقتها على نفسها تحديا وفخارا

والمنحطون فى الادب الانجليزى يمتون بنسب الى المنحطين فى الادب الفرنسى ، وقد تتلمذوا الى حد ما « لبودلير » و « جوتييه » . ولكنهم كانوا مع ذلك مستقلين ، يجدون فى البيئة الانجليزية نفسها السم والدسم لأدبهم . وقد اخصبت بهم انجلترا فى السنوات الثلاثين بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠

وكى نفهم المنحطين فى انجلترا يجب ان نعود فننظر نظرة عاجلة فى ابى نواس ، اذ ليس هناك شك مثلا فى ان هذا الشاعر العظيم كان ، بمقاييسنا الاجتماعية الحاضرة ، منحطا . وهذه حياته وأشعاره توضح لنا هذا الانحطاط . واذا نحن تأملنا البواعث التى بعثت عليه الفيناها تتلخص فى الرجع اى « رد الفعل » الذى شعر به هذا الشاعر وهو يعيش فى مدينة تحتوى على صنوف من فتنة المدن وملذاتها ، ثم ينظر فيجد ان الشعر لايزال بدويا لا ينطبق على حال هذه المدن . فهو ثائر على الشعر البدوى يدعو الى حياة المدينة وملذاتها . وهو فى ثورته يبالغ ويمعن لأنه يريد الانتقام . وكلما امعن وبالغ تورط فيما يتجاوز صحة الفن وسلامة النظر . فهو هنا مجدد . ولكنه فى تجديده منحط

وكذلك الحال مع هؤلاء المنحطين الانجليز ، فانهم ثاروا على ادب القرن التاسع عشر ، وبالغوا فى الثورة الى حد الانتقام للحديث من القديم ، فتورطوا فى أشياء لا تختلف عما تورط فيه ابو نواس . حتى لقد مارس بعضهم بعض رذائله . وحتى لقد دعوا الى المدينة مؤثرين حياتها على حياة الريف ، يفضلون جمالها وضوضاءها على جمال الطبيعة وسكونها . فضوضاء المدن موسيقا والحان ، وسكون الريف ركود واسن . كما آثر ابو نواس المدينة على البادية . ولكنهم كانوا حتى فى هذا الانحطاط مخلصين . وهم الآن بعد زوال اشخاصهم قد ذهب زبدهم وبقى منهم ما ينفع الناس

كانت انجلترا فى القرن التاسع عشر منكوبة بنزعتين، احداهما سلطان العرف والعادة ، والثانية الروح الطهرى الذى كان يجنح الى النسك وكراهة الملذات الفنية . وكلتا النزعتين تدعو فى

النهاية الى الانكفاف والاحجام والخوف من التجارب والبدع . ولذلك حدث الرجع فى نهاية القرن التاسع عشر وكان شـديدا عنيفا حتى لقد انتهى عند بعض القائمين به بالسجن أو الموت المبكر أو التشريد. ولكن مع كل ذلك بقى من هؤلاء «المنحطين» أثرهم فى الادب الانجليزى الحديث . ففى انجلترا الآن نهضـة تنزع نحو الاغريق وتدعو الى الجمال . وفيها ثورة على العرف ، وجراة على الابتكار فى الأخلاق. وبها نزوع الى التجربة والاقتحام . وكل هـذا يرجـع الى هؤلاء المنحطين الذين احترقوا بالنار كى يعرفوا الناس فوائدها

واول هؤلاء المنحطين هو «والتر باتر» ، وكان فى فنه وأدبه مشبعا بالاحساس الاغريقى . وقد دعا الى الوثنية الاغريقية، وفتن الناس بالنزوع الى اللذة والجمال . فهو القائل ما معناه : اننا يجب ان نختبر الاختبار ونجرب التجربة ، ولكن ليس لكى نجنى منهمـا ثمرتهما فنزداد حكمة ، وانما علينا أن نختبر ونجرب للذة الاختبـار والتجربة وحسبنا ذلك منهما . وهذا مذهب مخيف لا يسـتطيع أن يتحمل قائله عواقبه أو يعمل به كله . ولكنه يدل على الرجع أى «رد الفعل» للقرن التاسع عشر

أما المنحط الثانى فهو « أوسكار وايلد » الـذى كان يتأنق فى أسلوبه وحديثه . وقد دفعه التأنق الى الشذوذ . وكما ان الكاتب المتأنق يتحرى اللفظة النادرة لبريقها أو رنينها ، كذلك هو صـار يتحرى الشذوذ فى ملذاته وينزل على رأى باتر فى توخى التجـربة أو الاختبار للذة فقط . وأدب الكاتب هو بعض حياته . ولذلك فان «أوسكار وايلد» اتخذ أسلوبا للحياة ، حياة اللذة والتلألؤ ، يتطعم أطايب الحياة وتوابلها ويتأنق فى اختيارها . وصـار يطـلب اللذة النادرة حتى وقع فى اللذة الشاذة . وعاش بذلك فى فسق الجسـم والذهن . واختياره لقصة «سالومة ويوحنا المعمدان» يدل القارىء على هذا الذوق الذى ينشد الجمال الشاذ ويعشق الموقف عند أزمة العواطف وهزيمة العقل الرزين امام غلواء الشـهوة . ونحن حين نقرأ هذين الكاتبين نشعر أننا نتنزه فى جنة الذهن ونتلذذ العبارات

المتلألئة والكلمات المتألقة . ولكننا نحس أيضا اننا فى صحراء الروح اذ لا نجد أهدافا أو مثليات . بل نجد أحيانا التهكم بالاهداف والمثليات

وكلاهما ، اى «والتر باتر» و «أوسكار وايلد» يدعو دعوة جديدة هى التعمق فى الحياة . فان عامة اناس يعيشون على السطح ، يلمسون من الحياة اقل تجاربها وابسطها ولا يكادون ، بل منهم من ينكف ويحجم كانه راهب يخشى الاقتحام والانغماس . ولكن هذه الحياة لا يمكننا أن نصل منها الى اللباب والصميم الا اذا انغمسنا فيها ، ننغمس فى الحياة كما ننغمس فى اللذة ، وانما يكون ذلك بالتعمق والتوغل فى الاختبارات والتجارب

وهذه دعوة وثنية اغريقية يمكنها أن تثمر الثمرة المرة كما تثمر الثمرة الحلوة . وقد نستطيع أن نرى فى قصة «جرانت الين» « المراة التى فعلت » مثالا من ثمرات هذه الدعوة . فهو هنا يصف لنا فتاة ترفض الزواج استبقاء لحريتها ، وثورة على العرف وقيود المجتمع

وقد يعد الانسان هذه القصة كما يعد بعض قصص «أوسكار وايلد» من الثمرات المرة لهؤلاء المنحطين . ولكن كل واحد من هؤلاء المنحطين قد ترك أثرا حسنا فى الأدب الانجليزى الى جانب ما نخلفه آثارا سيئة . فان المسرح الانجليزى مثلا قد ارتقى بفضل «أوسكار وايلد» الذى يمكن أن نقول أنه مهد لـ «برناردشو» بتعويد الناس الحوار البارع بين الممثلين ، والانتقاد الاجتماعى عن سبيل الفكاهة اللاذعة . وكذلك «والتر باتر» مازلنا الى الآن نرى اثره فى الطبقة الجديدة من الكتاب مثل «لورنس» و « الدوس هوكسلى»

وللمنحطين — كما هو المنتظر — شأن خطير فى الادب الفرنسى . وللمنحطين الانجليز صلة قوية بهم حتى لقد الف «أوسكار وايلد» احدى دراماته «سالومة» باللغة الفرنسية . ولكن هؤلاء الانجليز بادوا فى حين لايزال الانحطاط حيا فى فرنسا . كما

نرى فى مثال «أندريه جيــد» . ومهمــا بلغ المنحط الانجليزى فانه لا يصل الى مستوى «بيير لوتى» الذى كان يدهن وجهه بالمساحيق والاصباغ ، ويسلك مسلك أبى نواس فى ملذاته الجنسية

ويمكن أن نلخص السمات التى اتسم بها المنحطون فيما يلى :

- الدعوة الى الجمال بلا اعتبار للأخلاق أو العرف الاجتماعى
- ايثار المدينة والصناعة على الطبيعة والسذاجة
- توخى اللذة حتى ولو كانت شاذة تخالف المألوف فى الطبيعة
- وضع الحياة الحسية فوق الحياة الذهنية
- ايثار الفن على الطبيعة ، بل على الحقيقة

كبلنج : شـاعر الاستعمار

فى انجلترا ثلاثة من الادباء يشـهد لهم قارئهم بأنهم دعـاة عظماء للرجعية ينافحون عنها فى بلاغة وقوة وايمـان . ومن هؤلاء اثنان يكرهان العصر الحديث قلبا وقالبا ، أى روحا وشكلا ، همـا «تشسترتون»و«بيلوك» .وكلاهما كاثوليكى يكرهبدعة البروتستنتية ولو قام جهاد دينى لقمع هذه البدعة لتجنـد كلاهما فيه . ثم همـا يحنان حنينا عظيما ، كأنه وحم الحبلى ، الى القرون الوسـطى ، ويتغنيان بها كأنها الجنة المفقودة . فهما يذكران منها مثلا نظـام «الطوائف» ويتحسران عـلى زواله . ويـذكر «بيلوك» النظـام الاقطاعى بالاعجاب . وكلاهما يكره مذهب «داروين» وينكره بلهجة الجزم التى ينكر بها المتدين عقائد خصـومه . وهما يدافعـان عن البابا و الكاثوليكية كما يدافعان عن عصر الصناعات اليدوية

اما الرجعى الثالث فهو «كبلنج» شـاعر الامبراطورية ، اى شاعر الاستعمار . وهو يختلف من الاثنين السابقين من حيث أنه يؤمن بالقرن العشرين . وهو من الشـعراء الذين يسـتطيعون أن يؤلفوا القصائد فى مدح الاتومبيل والقطار والتلغراف . ولكنه مـع ذلك رجعى يكره النزعات الانسانية الجـديدة . اذ هو داعية بليغ من دعاة الحـرب ، لا يعـرف عصـبة الامم ، ولا يؤمن بتحقيـق السلام . وهو نقيض «المنحطين» من حيث انه يجعـل الفن وسيلة لخدمة الاستعمار البريطانى فى حين كانوا يجعلون الفن غاية . وهو مع ايمانه بالحضارة يكره منهـا نعومتها وما فيهـا من أسـاليب التطرية ، ويكتب عن الغابة وقتال الحيوان والانسـان كأنه يعيش

فى العصور البدائية . وبراعته هنا تتجاوز الوصف نثرا ونظما . فانه يجعل « اشخاص » القصة من الحيـوانات التى تتكلم وتتناقش فى حال من الالفة الذهنية التى لا يستطيعها الا كاتب كبير . وقد حام المنحطون ولعبوا بفكرة الترف والتطرية . ولكنه هو لا يعـرف من الرجال سوى الفحل الممتلىء بالرجولة ،وهو اذا انحط فانما يتجه انحطاطه نحو الاعجاب بالرجـل المتوحش ، وليس بالرجل المترف الناعم

نشأ «كبلنج» فى الهند واكتسـب مزاجا خاصـا بالاقامة بين الجاليات الانجليزية فى ذلك القطر العظيم الذى يشبه القارة.فهو انجليزى يحتقر الهنود ويظن انهم هم والمصريون ، والبوير ،والزنوج لم يخلقوا . وليس لوجودهم معنى أو مغزى الا ان يخدموا شـعب الله المختار ، أى الانجليز . وهو صاحب هذه الكلمة الاستعمارية المشهورة : «لا يعرف انجلترا من لم يعرف سوى انجلترا» . يعنى بذلك ان عظمة الانجليز تتضح فى مستعمراتهم التى لا تغيب عنهـا الشمس

فهو يعجب باللورد كرومر ، ويعده من عظماء العالم ، وينسى أنه صاحب فجيعة دنشواى ، وانه أرصد حياته كى يعوق أمة كبيرة من التقدم . وانه كان يبتز اموالها لدولته ، ويدعى حماية عمالها . وهو يعرف ان هؤلاء العمال مرضى بألوان من الامراض ، وعلة هذه الامراض هى مشروعات الرى التى عممهـا فى مصر كى يزيد زراعة القطن ، فتشتريه منشستر رخيصا وفيرا . وهو يعجب «بسـل رودس» لانه ارتكب من الجرائم وجر من الويلات عـلى البوير ، ما كان يستحق عليه ان يشنق ، لو أنه عومل معـاملة المتمدنين . ولكنه يعجب بكرومر ورودس لانهما انجليزيان استعماريان ، وينسى الانسانية والشرف والمروءة اذا ذكر المصريين او البوير

وهو مع براعته النادرة فى قرض الشعر وسمو الخيال ، يكاد الانسان يخرجه من زمرة الادباء ، كلمـا تأمل البواعث الاجرامية التى تبعثه على تاليف قصيدة أو قصة . فان الاديب يؤمن بالحرية



تشسترتون

الفكرية اذ هى دينه الذى يجب أن يدافع عنه طيلة حياته . ويؤمن بالانسانية التى هى موضوع أدبه . ولكن «كبلنج» يخون الاثنين ، يخون الحرية ويخون الانسانية . وهو قبل كل شىء يدعو الى السيف والنار ، ويتغنى بالمدمرات والغواصات . وهو فى انجلترا بمثابة «تريتشكه» فى المانيا ، مع فرق واحد وهو أن صوته لايزال عاليا ، لان انجلترا خرجت من الحرب ظافرة ، بينما صوت «تريتشكه» قد خفت عندما انهزمت المانيا

وقلما تخلو أمة من الادباء الوطنيين ، يضعون وطنيتهم فوق أدبهم . ولكن الوطنية اذا احتدت واحتدمت ، صارت مرضا يشبه الحمى فى نوباته ، ويدفع الى الهذيان والعدوان . وقد كان

«تريتشكه» الالمانى يدعى ان العالم كله يجب ان يخضع لالمانيا . وكان «تشمبرلن» الانجليزى المتألمن ، يدعى أن العبقرية والاختراع والمثليات ، كل هذه ثمرات المانية . حتى السيد المسيح نفسه ، كان فى زعمه المانيا

و «كبلنج» لا يهذى كل هذا الهذيان ، ولكنه يتغنى بالامبراطورية والاستعمار . ويتكلم عن عبء الرجل الابيض كأنه يعنى ويصدق ما يقول ويؤمن به.كان الاستعمار لم يخترعه الرجل الابيض الا لخدمة السود والصفر والسمر من بنى الانسان . وهم لذلك عبء عظيم يحمله الانجليزى والفرنسى ، بدافع شريف من دوافع المروءة والانسانية . ولذلك كثيرا ما نقراه فنفتتن برنين قصائده ، ولكنا نعاف ونشمئز من اهدافه ومثلياته التى لا تزيد على أن تكون رواسب سيكلوجية من أيام التلمذة ومفاخر الصبيان

وهذه الوطنية الحادة المحتدمة هى التى بعثت «كبلنج» على أن يقول مدة الحرب الكبرى هذه الكلمة الكافرة : ان العالم يسكنه اثنان هما النوع البشرى والالمان . وبنفس هذه الروح ، سبق له ان قال : «الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقى الاثنان» . والشرق عنده مؤلف من الامم التى تستعمرها بريطانيا وتدوسها بأقدامها وتحرمها من العلم والصناعة

وهو من حيث الاخلاق يدعو دعوة القرن التاسع عشر . فهو يطلب من المراة أن تلزم بيتها ، ومن الرجل أن يعتمد على نفسه ويجترىء ويقتحم . وهو لهذين الغرضين يكره الاشتراكية ويناصبها العداء . وأنت تقرأه فتشعر ان «صموئيل صميلز» صاحب الكتب العديدة ، التى الفت فى «تقديس النجاح» قد انقلب شاعرا يعظ الناس ويشرح لهم قيمة الاخلاق التى يمتاز بها الرجل الناجح فى جمع المال . وهو قصير النظر لا يستطيع ان يبصر بحقائق النظام الاجتماعى ، ولا يتعظ بوجود نحو ثلاثة ملايين عامل عاطلين فى بلاده ، سبب عطلهم هو «نجاح» الماليين فى جمع المال .

وكذلك هزيمة بلاده أمام اليابان فى التجارة لم تفتح عينيه . وكذلك نهضة الهند لم تنبه ذهنه الغافل

واحيانا يؤلف «كبلنج» قصائده كالسكران او المجنون ، فيحرض على الجريمة ويشرح للجندى البريطانى كيف يسرق وينهب ويقتل الهنود والمصريين ، او البورميين والزنوج . انظر الى هذه الكلمات الفاجرة :

«تذكر ، ايها الجندى ، وانت تحطم المعبد حول رب من الارباب المذهبة فى بورما أن عينيه مرصعتان بالاحجار الثمينة

«وتذكر انك عندما تعطى الزنجى جرعة من سوطك المطهر فانه سيعترف لك بكل ما يملك»

اما بعد ذلك فقل فيه ما شئت من براعة فى نظم القصائد وتاليف القصص . ويشق على الناقد ان يسلكه فى زمرة خاصة من الرجعيين أو المجددين . فليس شك مثلا فى أنه أبعد الناس عن المنحطين كما هو أيضا ابعدهم عن المجددين . ثم ان رجعيته لاتمت بأى نسب الى رجعية «موريس» أو «روسكين» أو «تشسترتون» أو «بيلوك» من حيث كراهة الآلات والعصر الصناعى الحاضر . وانما هى رجعية الاستعمارى الذى يستغل الآلات فى جمع الثروة ، ولكنه يأبى أن يؤمن بالانسانية . وقد يكون مما يوضح غرضنا أن نقول أنه نقيض «بيرون»فى الاخلاق والخيال الشعرى . وهو لو عاش قبل مائة سنة اى سنة ١٨٣٠ او ١٨٤٠ لوجد الوسط المحيط به اليق به واكثر مشاكلة لادبه . اما الآن فلسنا نظن انسانا مثقفا يتطعم افكاره ويسيغ نزعاته . وهو لذلك بطل من أبطال المدارس الانجليزية ، يقراه التلاميذ والطلبة ويتغنون بأمجاد الامبراطورية التى تفهق بها قصائده.ولكن الانجليزى المهذب يجد فيه كثيرا مما يخجله . اما غير الانجليزى ، وخاصة اذا كان وطنه قد نكب بالاستعمار البريطانى مثل مصر والهند ، يجد فيه كثيرا مما يحنقه ويؤسفه على أن مثل هذا الرجعى يوجد فى القرن العشرين

دراســة الاقتصاد والاجتماع

اخذت المسائل الاقتصادية تغمر كل شيء منذ أوائل هذا القرن حتى تدخلت في الدين والسياسة والادب . فصرنا نسمع عن «الاشتراكية المسيحية» ، ونقرأ لكهنة الدين المسيحي اقوالا توهمنا أن المسيح قد سبق كارل ماركس وانه دعا الى دعوته . بل ظهرت في أوربا أحزاب ، تمزج بين المسيحية والاشتراكية ، وترشح اعضاءها كي ينفذوا المبادىء الاقتصادية التي يدعو اليها الانجيل

وكذلك السياسة أخذت منذ أكثر من خمسين سنة تتجه نحو الاقتصاد . فمجالس الوزراء الآن ، لا تشتغل في معظم أوقاتها الا بالصناعة والزراعة والتجارة وزيادة الاجور وضرائب الجمارك ونحو ذلك . بل لقد شعر المستر تشرشل أحد وزراء بريطانيا السابقين بضغط المسائل الاقتصادية . وهذه السنوات السود التي نعيش فيها تدلنا على أن السياسة اذا لم تكن اقتصادا فهي ليست شيئا يذكر

وليس غريبا اذن أن يلتفت المجددون في الادب الانجليزي الى الاقتصاد . فقد وجدوا أن للعوامل الاقتصادية آثارا واضحة في حضارة الامة ، واخلاقها . ولذلك اتجهوا الى درس الاحوال الاقتصادية اتجاها قويا ، فألفوا القصص والدرامات حتى يقفوا الجمهور على المساوىء الاقتصادية التي تجر في أعقابها مساوىء اجتماعية

وابرز الادباء الانجليز الذين جعلوا من الادب وسيلة لدرس المسائل الاقتصادية هم «برناردشو» و «ولز» . وهما أيضا على

راس المجددين . ومن هنا نعرف ان كثيرا من التجديد الادبى فى انجلترا انما هو تجديد اقتصادى

ولا تكاد تخلو قصة من قصص «ولز» من عبرة اجتماعية ، يستخرجها القارىء من الاحوال الاقتصادية . واى شىء أفعل فى النفس من قصة «تونوبنجاى» التى يصف فيها كيف تجمع الثروة الضخمة بالغش والخداع ، ثم كيف تضاع فى مظاهر اجتماعية سخيفة ؟ فهنا نرى رجلا يؤلف عقارا ويعلن عنه انه يشفى طائفة من الامراض ، ويؤسس الجرائد والمجلات . الغرض الظاهر منها خدمة صحفية ، والغرض الباطن هو الاعلان عن هذا العقار ، وليس فى هذا العقار أى شىء لا يعرفه الناس ، وليس فيه اية ميزة ولكن الجمهور يقبل على شرائه ، لان الاعلانات المتكررة تستهويه وتغريه وتقنعه بفائدته . ولايزال صاحبه فى هذا النشاط حتى يصبح من أغنياء العالم المعدودين . ويتساءل «ولز» هنا : اى نظام هذا الذى يجيز لمثل هذا الرجل أن يخدع السذج حتى يستولى على نقودهم بمثل هذا الدواء الذى لا يفيد أحدا ممن يستعمله من المرضى ؟

ولكن «ولز» لا يقتصر على القصة . فهو قصاص بالمهنة ، ولكنه اشتراكى بالنزعة ، وعندما يجد ان القصة لا تسعفه بتحقيق غرضه يعمد الى الموضوع نفسه فيخرجه مدروسا مشروحا فى كتاب مستقل . فمن ذلك كتابه «عوالم جديدة للقدماء» وهو فى شرح المسائل الاقتصادية . وكتابه «شقاء الاحذية » وهو فى هذا الموضوع ايضا . وللأحذية مكانة فى نفس «ولز» لا يستطيع ان ينساها حتى الآن ، وهو يربح فى العام أكثر من عشرين ألف جنيه . لانه نشأ وهو صغير فى مسكن وضيع فى بدروم أحد البيوت الكبيرة ، فكان يرى ، لاول ما يرى من السابلة فى الشارع ، احذيتهم

وفى عام ١٩٣٣ صدر له كتاب ضخم لا يقل عن ٨٥٠ صفحة كبيرة هو أعظم شهادة على الرغبة الحارة التى تحدو هذا الاديب الى الاصلاح الاقتصادى . وهذا الكتاب هو «العمل والثروة

والسعادة» . وهو يعالج الازمة المالية المستحكمة وقتئذ فى ذكاء واحاطة جديرين بالاعجاب من الاختصاصى ، فضلا عن الاديب . والكتاب أشبه بالموسوعة يشرح فيها كيف يعمل الناس فى الصناعة والزراعة ، وكيف يلهون فى فراغهم ،وكيف يتنقل الناس فى أسفارهم، وما هى مهمة المراة فى هذه الدنيا ، وما ينتظر منها . وكيف تتألف الحكومات . وما الى ذلك

وكذلك «برناردشو» . فان مؤلفاته ودراماته تكاد جميعها تتجه نحو الاشتراكية . وله كتب عدة فى هذا الموضوع ، منها «اشتراكية المجالس البلدية» و «الاشتراكية للأغنياء» . ثم كتابه الضخم «دليل المراة الذكية عن الاشتراكية»

اما دراماته فجميعها تقريبا تعالج موضوعات اجتماعية لها اساس اقتصادى . وهو يعزو جميع النقائص الاجتماعية كالبغاء ، والحرب ، والجرائم ، والامراض ، الى عوامل اقتصادية ، ويبحثها جميعها من هذه الناحية . والقارىء لـ «برناردشو» يشعر فى جميع ما يقرأ أن المؤلف يريد ان يبرز له هذه الحقيقة ، وهى أن فى العالم فقراء يؤذيهم الفقر فى صحتهم واخلاقهم . واغنياء لا يعرفون كيف يتمتعون بغناهم ولا هم مرتاحون الى هذا الغنى ، لان تكاليفه تكاد احيانا تزيد على مكافأته . وهو لا يطالبنا بأن يكون لنا ضمير فقط ، بل يلح علينا بان هذا الضمير يجب أن يكون ذكيا مدربا ، وليس بليدا غافلا

وقد كان الفقر موضوعا للأدباء ، قبل خمسين سنة . فان كتاب «البائسين» الذى الفه «فكتور هوجو» هو فى الحقيقة كتاب الفقراء ، لان البؤس هو الفقر . والقصص التى الفها «تولستوى» و «دستوء فسكى» و «جوركى» تنحو احيانا كثيرة نحو هذه الغاية . ولكن القصد لم يكن واضحا عند «هوجو» أو «دستوء فسكى» أو «تولستوى» . لان الفن يتغلب هنا على القصد الاجتماعى . ولان اشتراكيتهم كانت طوبوية قائمة على الامانى ، ينشدون طوبى المستقبل . وهى ليست معللة بالعلم فى ضوء المخترعات الآلية

المنتجة لملايين السلع . وقد لا نستطيع ان نقول مثل هذا القول عن «جوركى» لان غايته واضحة واشـــتراكيته علمية . ولكن لا يسـع القارىء مع ذلك الا ان يحس ان رجل الفن هنـا أبرز من رجـل الاجتماع

اما الادباء المجددون فى انجلترا فان غايتهم تتضح وقصـدهم يسفر . وقد يكون ذلك لانهم دون «جوركى» فى الفن ، او لان الرغبة فى الدعاية المذهبية تتفوق على الحاسة الفنية . ولذلك كثيرا ما نجد «ولز» أو «شو» ينسيان القصة أو الدرامة ويأخذان فى شرح حالة اجتماعية بلهجة التدريس لا بلهجة القصص او الحوار

ولا يقتصر هذا الالتفاف على هذين الادبيين البـارزين ، فان هناك عددا كبيرا من الادباء الانجليز قد جعلوا الفقر حجر الزاوية عندهم فى القصة او الدرامة .وقد تجاوزت هذه النزعة كتاب انجلترا الى الكتاب الامريكيين . فهناك نجد مثلا «ابتون سنكلير» الذى خص نفسه لمعالجة الدعاية الاشتراكية فى أسلوب سافر جعـل جميـع الناشرين يقاطعونه ، حتى صار يضطر الى ان يطبع مؤلفاته بنفسه فهو مؤلف وطابع وناشر

برناردشـــو

قلما يتاح لاديب أن ينال من الذكر بين العامة والخاصة مثل ما ناله «برناردشو» . فان قراء الصحف الذين لم يعتـــادوا قراءة كتاب فى الادب يعرفون اسمه ويحبونه ، بينما هم يجهلون «كبلنج» أو «روسكين» أو «ولز» . وليس هذا بين الجمهور الانجليزى فقط بل بين سائر الجماهير القارئة فى العالم المتمـــدن . وبعض هـــذا يرجع الى انه عاش الى الآن (١٩٤٨) أكثر من تسعين سنة على هذا الكوكب . وهو فى رحلته الطويلة عبر القرنين التاســـع عشر والعشرين قد اختبر كثـــيرا واصبحت الاجيـــال تورثه أبناءها كأنه كنز وطنى

وذلك لأن «برناردشو» يمزج فلســـفته بالفـــكاهة . فالاولى للخاصة والثانية للعامة . وهو فى فكاهته يسمو عـــلى التهريج . فاذا أراد أن يضحك لم يدهن وجهه بالدقيق ويهرج لك تهريج البله والمجانين . بل هو يتأنق فى اعمال الفـــكرة ، وينظـــر الى ما وراء الظواهر فيزيل عن الوقار هيبته ، وينضو عن العرف ثوبه ، ويقف بك حيال الحقائق العارية . ولكن لما كان مثل هـــذا الموقف يؤلم ، لانه يحرمنا من أوهامنا المحبوبة ، فانه لذلك يخفف من هـــذا الألم بالفكاهة . وفكاهاته هى تشنجات الحكمة التى قد يضـــحك منهـــا العامى . ولكن الرجل المثقف يقف عندها متأملا مفكرا ، وأحيـــانا متألما . ويمتاز «برناردشو» بذهن قلق نشيط ، يشع ضياء على كل ما يمسه كأنه جسم مفصفر يتألق . وهو ينعت نفسه بأنه «ثائر» . وهو كذلك فى المعنى السامى للثورات . ذلك لأن لكلمة «الثورة» فى

الاذهان معنى الحـركة التشـنجية والمفـاجاة المنظـرية . ولكن «برناردشو» يقول ان هذه المظاهر برهان الفشـل فى الثورة . لأن الثورات يجب أن تتسلل الى المجتمع وتتخلله حتى يتغـير فى سـلم وهدوء . فاذا لم تنجح فى التسلل والتخلل فانها تنفجر

ويختلف «برناردشو» من المنحطين اختلاف النقيض النقيض . اذ بيناهم يؤمنون باللذة ويدعون الى الاستمتاع ، يدعو هـو الى النسك والزهد . ولا يعرف من اللذات غير اللذات الذهنية . فهـو يتهالك على الصورة الفنية وينغمس فى درسها ، او يتهالك عـلى الموسيقى ويرضى بتكبد المشاق لاستماع أحد الموسـيقيين أو رؤية أحد الراقصين . ولكنه يصد صدودا مستغربا عن اللذة الجنسية. وقد عشق الممثلة الجميلة «الين ترى» فكان يراها وهى تمثل عـلى المسرح ثم يتجنبها فلا يلتقيـان ولا يتواعدان . ولكنهمـا يقنعـان بالمكاتبة

وقد علل أحد النقاد هذا الزهد الجنسى بتعاليل مختلفة ، منها زهده فى طعام اللحم وشراب الخمر . ولكن اصح من هـذا التعليل أن يقال أن زهده للنساء واللحم والخمر يعود الى منبـع واحـد فى نفسه هو هذا المزاج الطهرى الذى تجد له أمثلة عدة فى انجلترا ، وهو ثمرة الدعاية الطهرية التى فشـت فى تلك البـلاد منـذ ايام «كرومويل» وجحدت حتى اللذات الفنية

وقد سبق أن قلنا ان كبلنج يجعل من الفن اداة الخـدمة الامبراطورية والاستعمار . « وبرنارد شو » يشـبهه من حيث استعمال الفن اداة . ولكنه يخدم بهذه الاداة « الاصلاح الاجتماعى » وهو قبل كل شىء يدعو الى الاشتراكية العلمية . ولايبالى انفـاق وقته وماله فى تحقيق هذه الاشتراكية . وعواطفه شعبية ، ينحـاز الى الضعيف والمظلوم والفقير . وقد تبرع بمبلغ ثلاثين الف جنيـه لبناء منازل للعمال

ومن يتأمل مؤلفاته وحياته يجـده عاش ، ومازال يعيش ، فى ضوء « داروين » و « ماركس » . وليس هذا غريبا ، فان حيـاته



برناردشو

الذهنية تقع بين ١٨٨٠ و ١٩٤٨ . وفى النصف الأول من هـذه المدة كان التطور مثار المناقشة وموضوع المجلات والكتب . أما النصـف الثانى فموضوعه الكفاح الذى لم ينته بعد بين الاشتراكية التعاونية وبين الانفرادية التزاحمية

وقد نشأ « برنارد شو » فى أرلندا من أبوين بروتستانتيين . وكانت أمه تجيد العزف على البيان ، وكان أبوه سكيرا مستهترا . ورحلت به أمه الى انجلترا ، وكان «برنارنشـو» لا يخجل وهـو شاب من ان يعيش بما تتكسبه هى من الموسيقا . وقد اسـتطاع بفضل هذه الام أن يتوفر على القراءة والدراسة

وكانت الاشتراكية حوالى ١٨٨٠ بدعة تجذب اليها الشبان لكثرة نظرياتها وشكوكها واختلاط المذاهب بين القائمين بها . فجذبته اليها وكان هو أحد المؤسسين للجمعية الفابية التى أخذت على نفسها تغذية الجمهور الانجليزى بالمؤلفات الاشتراكية

والقارىء لـ « برنارد شو » لا يسعه الا ان يعترف بأنه اكتسب شيئا كثيرا من المفكرين والادباء الاجانب . فهو متدين غير سنى يؤمن فيما يتعلق بما وراء المحسوس بـ «برجسون» و « وشوبنهور » . وقد أخذ عن « ابسن » درامة « الموضوع » او المسألة . كما اخذ شيئا كثيرا عن « نيتشه » فى الاخلاق . هو يؤمن بالتطور ولكن ليس عن طريق «داروين» بل عن طريق « لامارك » . اما اشتراكيته فكانت ، وماتزال ، اشتراكية « ماركس » العلمية

أما الكتاب الانجليز الذين تأثر بهم فكثيرون . منهم «روسكين» و « صموئيل بطلر » و « دكنز » و « داروين »

وهو فى اسلوبه وغايته أقرب فى الشبه الى العلماء مثل « برتراند روسل » او « هافلوك اليس » منه الى الادباء مثل « رديارد كبلنج » أو « أرنولد بنت » . فان عبارته تمتاز بالدقة ، وتخلو خلوا من التزويق أو الرشاقة . وأكاد اتوسم من مؤلفات « برنارد شو » أنه رائد لسلالة جديدة من الادباء هى تلك التى تؤمن بالعلم ، وتقلع عن الادب كانه من الوسائل العتيقة التى مضى زمانها . وهو يكره الاساليب المسبدة والافكار المسبدة ، ولايبالى الفن الدرامى كثيرا . وقلما نجدفى دراماته ذلك التوتر المسرحى الذى يعلق انفاسنا . لانه انما يعنى بالمناقشة الذهنية الحريفة بل المشوطة

والآن ما هى المهمة التى أداها « برنارد شو » لبنى عصره ؟

١ . انه جعل الدرامة اجتماعية . فوصل بين المسرح والحياة ، وجعل منه مدرسة للكبار يرون فيها معضلاتهم الاجتماعية

٢ . انه ازال من المسرح تلك المكانة التى كانت للغرام والحب، والخيال الفاسد ، كما انه قضى ، او كاد يقضى ، على اساليب التهريج المسرحى من ايجاد مواقف دموية ، ومصادمات عنيفة ، تستثير الجمهور ولاتفيده ، كتلك المواقف التى لا تزال حية فى مسرحنا بفضل العاجزين السائدين فى التمثيل من مؤلفين وممثلين

٣ . انه جعل الفكاهة وسيلة الى درس الفلسفة

٤ . انه افشى فى العالم الانجليزى روحا انسانيا يكره الاستعمار ، واستغلال الأمم الصغيرة ، وتشريح الحيوان الحى ، وضرب التلاميذ ، وقتل الحيوان للطعام

٥ . انه جعل التطور مادة من مواد البرنامج الاجتماعى لاصلاح البشر . ورفع القيم البشرية فوق القيم الاجتماعية فى معنى الرقى والتقدم

٦ . انه اثبت فى اذهان الطبقة القارئة المستنيرة ان التقاليد والاخلاق عادات وعرف ، لا اكثر ولا اقل . وانها بعيدة لهذا عن اية قداسة تحول دون تغييرها

***

هذه خلاصة مقتضبة . ولكن على القارىء المصرى ان يذكر ان « برنارد شو »رجل غربى ، يؤمن بأوربا ، ولا يؤمن أقل الايمان بآسيا . بل هو الى حد ما يؤمن بالسلالات الاوربية ، وأنها زبدة البشر . وقد عطف على بعض المبادىء الفاشية لاتجاهها البيولوجى وانها تعمل لتطور النوع البشرى بتعقيم الناقصين

وبكلمة اخرى نقول أنه أبعد الناس عن « غاندى » . لان هذا يكره الآلات وما جرته من مظاهر الحضارة العصرية . ويدعو الى العودة الى سذاجة الانتاج اليدوى ، والمعيشة القروية . ولكن « برنارد شو » يؤمن بالآلات والحضارة العصرية

الدراما الاجتمــاعية

كان «برناردشو» أول من جهد لتعميم الدراما الاجتماعيــة فى المسرح الانجليزى . فقد دعا أولا الى دخول الدرامة الابســنية ، وكان بوقا عاليا لهذا المؤلف النروجى « ابسن » الذى اكتســــحت دراماته الخاصة المثقفة فى أوربا . ثم شرع هو منـــذ ١٨٩٠ يؤلف للمسرح ويعالج المسائل الاجتماعية . فله درامة عن البغاء وعلاقته بالأحوال الاقتصادية . واخرى عن الايمان بالمسيحية . وأخرى عن الحرب . الخ

وهو فى بعض هذه الدرامات يهدم ولا يبنى . وقد يعتذر عنــه هنا بأن الهدم نصف البناء ، وانه لا يمكن بناء الا بعد أن تزول بقايا القديم ، وينخلف المكان للجديد

وقد سبق أن قلنا عن « برنارد شو » أنه يمثل الانتقاض على القرن التاسع عشر والثورة على عقائده ومؤسساته . ففى هـــذا القرن نرى الايمان بالديمقراطية التى هى النتيجة المحتــومة للثورة الفرنسية . ونرى أن الرواج الصناعى قد بعث فى النفـــوس آمالا بالنجاح ، فزاد الايمان بالفردية والاســـتقلال الذاتى . ولكن درس الأحوال والتقلبات الاقتصادية وقف المفكرين العصريين عـ لى علل كثيرة فى النظام الاقتصادى الحاضر

وعندما نقرأ « برنارد شو » نجد أنه يمثل روح العصر فى هذا التزعزع الذى يشمل كل شىء تقريبا . فقد تزعزع ايماننا بأشـــياء كثيرة ، ووهنت عقائدنا أو انمحت ، ولكنا لم نضـــع مكانهـــا ايمانا جديدا . وهذا الجهد الذى نراه عند كثير من العلماء مثل«برجسون»فى

القول بالبصيرة بدلا من العقل ، أو عند «جيمس جينز» فى القول بأنه يشرف على الكون عقل رياضى عظيم ــ كل هذه المحاولات لايجاد ايمان جديد انما هى برهان على تزعزع العقائد القديمة ورغبة النفس الجامحة الى الاستناد الى شىء لانها لاتطيق الخواء

فاذا نحن درسنا « برنارد شو » او من جاءوا بعده من الادباء الاجتماعيين وجدنا شيئا كثيرا جدا من الهدم مع القليل جدا من البناء . وهم من هذه الناحية يشبهون علماء الاقتصاد فى الازمات الحاضرة . فان هؤلاء يجمعون الآن على فساد عظيم فى النظم الاقتصادية الراهنة ، ولكنهم عندما يطلب منهم ايجاد مقترحات جديدة للعلاج يعجزون عن اقتراح اى شىء ايجابى يمكن الاخذ به ، والاعتماد عليه ، غير القليل التافه . وهذا بالطبع باستثناء الاشتراكيين الذين يعتمدون على برنامج أيجابى واضح

ولست مع ذلك أتعامى عن اشياء ومقترحات كثيرة اقترحها « برناردشو » على سبيل البناء والعلاج ، ولكنها يبدو عليها عند التأمل انها فى مكان الاعتذار عن البناء ، لا البناء نفسه . فهو عندما يأخذ فى نقد المسيحية ويسير شوطا بعيدا فى الهدم ينتهى ، فى ضعف ، الى التعلق بأن الالوهية كائنة فينا . وعندما يسقط فى يده عن قيمة المنافسة بين الافراد فى عصر صناعى وما تجابه من ضرر بالناس يلتجىء الى الاشتراكية بتحفظات عدة تجعل كثيرا من المفكرين يتهمونه من اجلها بالفاشية

وقد يشعر القارىء له أن ايمانه كبير وانه يعتقد اعتقادا راسخا بالعلم وفائدته . ولكنه لم يستطع مع ذلك ان يصور لنا مجتمعا يعيش على ما يراه الا بعد أن يتخلص من العقل ويطير بالخيال الى زمن مجهول فى المستقبل يبعد عن زماننا بنحو ٣٠٠٠٠ سنة حيث تنقطع كل علاقة بين الحاضر والمستقبل

ومما يجب أن يلاحظ هنا أن جميع الادباء الذين يمثلون الانحلال ويعملون للهدم يتفاءلون بالمستقبل ويؤمنون اعظم الايمان بالعلم . وهذا ما نرى من «ولز» و «شو» مثلا ، بينما العلماء انفسهم

امثال «برتراند روسل» يتشائمون من سلطان العلم ويتنبأون أسوأ النبوات عن المجتمعات التى تعيش فى ظل العلم . ويقولون أن الفئة التى تحتكر الثقافة العلمية ستأخذ فى الاستئثار بالسلطان وتتسلط على العامة

ونظن ان القارىء سينتهى الى الاعتقاد بأننا نستصغر شأن « شو » بهذا الذى ذكرنا عنه . ولكن الحقيقة أننا نكبره ونعتقد أنه ادى أعظم خدمة للادب الانجليزى عامة وللمسرح الانجليزى خاصة بتوجيهه هذه الوجهة . ثم هو فى ظروفه التاريخية لم يكن له مفر من أن يقف معظم مجهوده الادبى على الهدم . فقد نشأ فى وسط اجتماعى ورث تقاليد عتيقة فى الاسرة والاقتصاد والحكومة وعلاقات الدول ، ورأى ظروفا اقتصادية جديدة فى الصناعة تفعل فعلها فى الانحلال ، فاخذ فى شرح النقائص حتى تطابق الحال الاجتماعية الحال الاقتصادية

وحسبنا من « شو » انه فتح الاعين الى الاصلاح بأن وضع الاصبع على امكنة الداء

و « برنارد شو » عندما يعالج المسائل الاجتماعية انما تحدوه الى هذه المعالجة نزعتان . احداهما تلك النزعة العلمية التى تجعله يؤلف كتابا فى الاقتصاديات لا تقل صفحاته عن ٥٠٠ يشرح فيها قيمة النقد ، ومعنى البدل النقد ، والعرض والطلب ، واجر العامل ، واجرة العقار ، ونحو ذلك ، مما هو أبعد الاشياء فى العرف الادبى عن أديب يحترف القصص أو الدرامات . والاخرى تلك النزعة الانسانية التى تعيد الينا ذكرى «فولتير» و «روسو» . واحيانا تصطدم فيه النزعتان . فانه يحارب العلماء والاطباء بماله وقلمه ووقته لانهم يجربون تجاربهم أحيانا فى الحيوان الحى . وهم بالطبع يقصدون من هذه التجارب الى المنفعة البشرية ، ولكن انسانية « برنارد شو » تمنعه من التفكير فى هذه المنفعة اذا كان لابد من ايلام الحيوان لأجل تحقيقها . وهو يكره القسوة بألوانها المختلفة ، ودرجاتها المتفاوتة . فهو من ناحية يلعن الاطباء والعلماء

لانهم يؤلمون الحيوان بما يسمونه التجربة العلمية ، ويتهمهم بأنهم انما يمارسون لذة خفية « سادية » بهذا الايلام لا تختلف من لـذة الرجل الذى يصاب بالشذوذ الجنسى حين يضرب المراة ويؤلمهـا ولا يتمم علاقته الجنسية الا بضربها وايلامهـا . ومن ناحية اخرى يخـاطب الزوج الانجليزى ويبكته فى لهجة لاذعة من التقـريع لانه يلح على اقتضاء حقوقه الزوجية بالنوم فى سرير واحد مع زوجته

وبين هذين الطرفين نجده فى معالجته للمسـائل الاجتمـاعية ينزع نزعة كثيرا ما تتفق واغراضه الاشـتراكية . فهـو يكره الاستعمار ، ويذكر حادثة دنشواى بالتفصيل المؤلم . والحق انه فى هذه النزوات البارة يقف من المجتمع موقف « فولتير » من مجتمعه فى القرن الثامن عشر . وليس شك ان «شـو» فى ايامنا هو السليل الروحى لـ «فولتير» . وهو يطلب الرفق بالاطفـال ، ويصرح بأن هناك آباء يسيئون تربية أبنائهم ويجب أن يفصلوا منهم . وقد آمن بنظرية التطور ، بل دعا الى الاستنارة بها فى ترقية المجتمـع ترقية عضوية حتى ينشأ من الانسان « سبرمان » تكون نسـبته الينا كنسبتنا نحن الى القردة . ولكنه عندما اصطدم بمبدأ « تنـازع البقاء » والطبيعة الحمراء بين المخلب والناب ، ابت انسانيته ان يصدق أن فى هذا الكون مثل هذه القسوة ، فرفض الايمان بهـذا المبدأ واخذ يحتال على تفسير آخر للتطـور . كأنه يريد أن تكون الطبيعة انسانية أيضا . أو كأنه لا يفهم أنه هو نفسه انسان لانه ارقى من الطبيعة

الطبيعة اخترعت الشهوة ، ولكن الانسان اخترع الحب

والطبيعة اخترعت التنازع ، ولكن الانسان اخترع التعاون

ومنطق الطبيعة هو الغريزة الوقتية ، ولكن منطق الانسـان هو العقل البصير

وعدل الطبيعة هو قوة البطش بالذراع ، ولكن عدل الانسان هو القانون

ولكن من الحق علينا ايضا ان نسلم بان كل ما فى الانسان من انسانية انما ترجع جذوره الى الطبيعة

فلســفة برنارد شــو

كان الفلاسفة فى الازمنة القديمة وبعض الحديثة لا يعــدون انفسـهم جديرين بالفلسفة الا اذا تكلموا عن الأصــول والنهايات ، وما يتجاوز حدود التفكير المنطقى الى الغيبيات . ومن هنا لم يكن الفرق عظيما بين الصوفى والفيلســوف . ومن هنا أيضــا كانت الفلسفات متشابهة فى الغاية والابهام أو الاستعصاء التــام على الفهم . فلم يكن يفهمها الا المعتقد الذى يرى أن العقيــدة خير من الرأى ، والبصيرة أنفذ من الفهم . وكان الفيلسوف لذلك يبتعد عن الناس ويعيش فى عزلة ونسك ، يجتر ذهنه ويكتب فى القـــــرن التاسع عشر ماكان يكتبه «افلاطون» قبل ٢٣٠٠ سنة عن الفكرة والموضوع . أو الشىء فى عقلنا والشىء فى ذاته ، الخ

وقلما ينجو مفكر من هذه الشواغل الذهنية . والواقــع انه يجب الا ينجو منها ، وأن تكون له منها رياضة ، بشرط الا ينغمس فيها . لان الاختبارات الماضية تدل على أن الانغماس لا يأتى بطائل ، واننا ننتهى بعد الجهد ونفاد الصبر والذهن الى أن نقول كما قال « هربرت سبنسر » أن كل هذه الاشياء هى « مما لا يمكن معرفته »

وفيلسوف هذه الأيام اذن ليس هو ذلك الناسك الذى ينأى عن الناس ويتكلم من فوق رءوسهم بما لايفهمون . وانمــــا هو الذى يختلط بهم ويدرس مسائلهم ويحاول المحاولات المختلفة لاصــــلاح أحوالهم ، بل اصلاح أجسامهم وعقولهم . وأنت اذا ســـألت عن المواد الخامة التى يغتذى منها الأديب أو الفيلسوف فى عصرنا الفيتها ابعد ما تكون عما كان يفكر فيه الاديب أو الفيلسوف القديم . فهو

الآن يدرس الطبيعة البشرية من المقامرة فى البورصة ومضمار الجياد ، وعليه ان يجهد ذهنه فى درس العوامل الاقتصادية التى ترفع وتحط الامم أو الافراد . فمسائل النقد والاجر والايجار والامتلاك والفاقة والغنى يجب أن تشغل باله . لان جزءا كبيرا من سعادة البشر يرجع اليها . ثم هو لا يمكنه الآن ان يستغنى عن العلوم لانه لم يعد فى مقدور انسان ان يتكلم عن الاخلاق والفضيلة والرذيلة ما لم يعتمد فى ذلك على المكتشفات العلمية الحديثة

و « برنارد شو » يعد من هذه الاعتبارات فيلسوفا حديثا يمتاز بنزوات فلسفية جميلة ، ظاهرها عبث وفكاهة وباطنها جد أكبر الجد . فهو يلح فى درس المجتمع الحاضر قبل درس التاريخ . ويؤلف الكتب فى واجبات المجالس البلدية كما يؤلفها عن مستقبل الانسان بعد ثلاثين الف سنة . ويقرأ الكتب الطبية ويجاهر الناس بأن الطب يحتوى ، الى جنب العلم الصحيح . مجموعة من الخرافات التى صارت حرفة يحترفها الاطباء العيش . وهو هنا متأثر بطب القرن التاسع عشر الذى لم يكن علميا محضا . اما الطب العصرى فينهض على العلم . ثم يعود على الادب فينعى على ادباء القصة والدرامة اهتمامهم بالحب والغرام . ويصرح بأن ذلك الرجل الذى يعدد مآثره الغرامية انما هو كذلك الآخر الذى يعدد مآثره فى التهام الوان الطعام سواء

وتمتاز الدرامة ، كما يؤلفها « برناردشو » بانها خالية من الغرام ، أو هو فيها فى المحل الثانى . بل هو احيانا كثيرة يخترع المواقف للتهكم بالعواطف الغرامية . ودراماته هى مصطرع الافكار يتألق منها شرر الذكاء فى حوار بديع . فلا يستطيع البليد او الذكى الا أن يفكر كلما قرأ له درامة أو شاهدها ممثلة على المسرح . وله بدعة جميلة هى انه يكتب لكل درامة مقدمة تبلغ ١٥٠ صفحة ، يشرح فيها الموضوع الذى تعالجه الدرامة . وهو هنا يشرح فلسفته ، ويسهب فى بيان ما اضطر الى اختصاره فى حوار الدرامة، بل هو أحيانا يبالغ فى هذه البدعة ، فلا يقنع بالمقدمة . بل يؤلف

كتابا آخر ينسبه الى أحد ابطال الدرامة ويلحقه بالدرامة نفسها . ففى « الانسان والسبرمان » نرى على المسرح رجلا يقول أنه الف كتابا ، ثم يقدمه لأحد أصدقائه . ولا ندرى نحن المشاهدين من أمر هذا الكتاب شيئا . ولكن « برنارد شو » يكتبه ويلحقه بالدرامة المطبوعة . وهو كتاب جميل يبحث آداب الثورة والثائرين لابناء القرن العشرين . والثورة هنا بيولوجية يراد بها تغيير الانسان فى جسمه وعقله . فهى ليست ثورة على الحكومة او المجتمع ، وانما هى ثورة الانسان على نفسه حتى ينشأ منه انسان آخر يعلو عليه ، كما يعلو الانسان الآن على القردة

وليس لـ «برناردشو» نظام فلسفى كما نرى مثلا لـ « شوبنهور » أو « برجسون » وانما له أفكار فلسفية يمكننا ان نستخرجها من دراماته أو بالاحرى من مقدمات دراماته

ولو شئنا لعددنا له الكثير من هذه الافكار . ولكن نقتنع ببعضها أو بالاهم دون المهم

فهو فى الاخلاق يطلب حرية الفرد التامة . فلكل انسان أن يفعل ما يشاء من فضيلة أو رذيلة . فيرى ان ليس للمجتمع مثلا ، أن يكف الناس عن الخمر . ويبنى رايه هذا على ان مصلحته الحقيقية تقتضى أن تباح الخمور لجميع الناس حتى تصطرع الارادات فيبقى الرجل المتين الصليب الذى لا تغريه الخمر بالانغماس ويموت اللين الخريع الذى ينغمس فى الشراب . وذلك أن من شأن الرذائل أن تقتل المتهالكين عليها ، وان من مصلحة الامة أن ينقرض هؤلاء الضعفاء الذين لا يملكون ارادتهم وعندئذ لا يبقى فيها غير الاقوياء . او بعبارة اخرى يريد «برناردشو» أن تكون الفضائل سجايا موروثة تجرى فى عروقنا وتتمشى بنا كأنها بعض طبائعنا تلزمها عفوا وطبعا وليس تكلفا وتعليما . ولن يكون ذلك الا بأن تنقرض منا عناصر الشر بانقراض اصحابها . وانقراض صحابها لا يكون الا بأن يستسلموا لها وينغمسوا فيها . واذا كانت الرذيلة لاتقتل أصحابها ، فهى اذن ليست رذيلة وليس ما يدعونا الى ان نكف الناس عنها . فالنهم ،

والمنغمس ، والمدمن ، والقذر ، والمستهتر ، كل هؤلاء يؤذون أنفسهم بما يمارسونه . فمن مصلحة الامة ان تتركهم حتى يبيدوا منها وليس من مصلحتها أن تقيم الحواجز كى تكفهم عنها . لأن قصارى ما تفعله عندئذ انها تقيم قفصا من الواجبات الاخلاقية . ولكنها مع ذلك لن تغير طبائعهم . وهو يضرب المثل بفرنسا التى تستباح فيها الخمور يشربها الصغار والكبار والاطفال والشيوخ . فان الفرنسى اقل الامم سكرا وادمانا ، لان الذين ادمنوا قد هلكوا وباد نسلهم فلم يبق سوى المعتدلين

ولكن الذين رأوا تفشى المخدرات فى مصر عقب الحرب الاولى لا يمكنهم أن يؤمنوا بهذه الاباحية . فقد راينا نحن نصف مليون مصرى تفترسهم المخدرات ، وليس فينا من يستطيع أن يقول انما انه يجب علينا أن نتركهم حتى تقتلهم هذه المخدرات ، لانهم انما وقعوا فيها لضعف ارادتهم . وأن هذا الضعف جدير بأن تطهر منه الامة حتى لا يبقى فيها غير الاقوياء المستعصمين الذين يستطيعون أن يعيشوا ويتصونوا مهما أحاطت بهم الغوايات

ولمذهب «داروين» الاثر الاكبر فى نزعات «برناردشو» التجديدية . وهو هنا فى موضوع الاخلاق انما يجيز هذه الاباحية لانه يرجو منها تطورا يصيب القلوب والغرائز فتستحيل الاخلاق طباعا موروثة لا يحتاج الناس الى تعلمها وتكلفها وسن القوانين واقامة الحواجز للمنع من مخالفتها

وهذا «التطور» يشغف به «برناردشو» شغفا عظيما حتى لقد جعله موضوعا لاثنتين من أقوى دراماته . وهو فى واحدة منهما يقترح انشاء «وزارة للتطور» يكون رئيسها عضوا فى مجلس الوزراء . والقصد من هذه الوزارة تدبير الطرق وتهيئة الوسائل لاستنتاج طراز جديد من الناس يكون أقوى جسما واذكى عقلا وأصح غرائز منا . وهذا الطراز الجديد هو سلالة «السبرمان» أى مافوق الانسان . فانه يقول أنه مادمنا فى عصر ديمقراطى ، الحكم فيه للامم ، فانه يجب أن نجعل الناس يتطورون . حتى اذا مرته

القرون ظهرت سلالات جديدة من الانســـان تمتــاز من السلالات القديمة بميزات انسانية جديدة . وهو هنا يشرح للقارىء جمـــود الانسان منذ فجر المدنية الى الآن . فان هذا الرقى الذى نفخر به انما هو فى الوسط الذى يحيط بنا وليس فى انفسنا . فنحن أبنـــاء العصر الحاضر وآباؤنا منذ عشرة آلاف ســـنة ، ســـواء من حيث صحة الجسم او ذكاء العقل ، لم نتقدم فى شىء . وانما هذا التقدم الموهوم هو فى الوسط فقط . وهوهنا يستشهد علىأننا والمتوحشين سواء فى الغرائز بآلاف الامثلة . منها مثلا أن المتوحشين يحملون فى فخار رؤوس قتلاهم . وكذلك فعل «كتشنر» مع جثة «المهدى» التى بعثرها بقنابل المدافع فى السودان

وهو يرى انه لابد لاستنتاج هذا الطراز الجديد من الانسان من الانتخاب الذى يتجاوز حدود الزواج . وهو يفرض وجود هيئة من العلماء تكلفهم وزارة التطور بتعيين الاشـــخاص الذين ترى فى تزاوجهم فائدة للامة من نســـلهم المنتظر . وهو هنا اباحى لا غش فيه . ولو أردنا الشرح والاسهاب لتورطنا فيمـــا لا يطيقـــه ذوق القارىء العربى ، ولكننا نقول انه ينظر الى القوانين والشرائع من حيث انها عادات وعرف ، وانه يجب أن تغير كلمـــا وجدنا فائدة فى التغيير . وهو يضرب المثل هنا بالزواج . فان هـــذه الكلمة تحاط بهالة من الاحترام والقدسية حتى ليظن الانسان أنها تعنى شـــيئا واحدا عند جميع الناس . مع أن الواقع أنها تعنى عادات تختلف بل تتناقض . فهناك المرأة التى تتزوج بضـــعة رجال فى «تبت» . وهناك الرجل الذى يتزوج بضع نساء . وهناك الزواج الذى لا يجاز فيه سوى رجل وامرأة لا أكثر .وينتقل من هذا البيان الى استدراج القارىء الى أن القول باســـتنتاج طراز جـــديد من الناس بلا زواج شرعى وعشرة دائمة بين الزوجين ليس قولا غريبا وانما هو ابتكار عادة جديدة يقررها وزير التطور ، أو هـــو زواج جـــديد ، يســـن المجتمع قوانينه الجديدة

ولا يجوز لنا أن نتناول فلسفة «برناردشو» دون أن نشـــير

الى الاشتراكية . فانه يعلق هذا المذهب الاقتصادى عـــلى مذهبه البيولوجى السابق فى استنتاج السبرمان . ومادامت المراة حرة من هذه الناحية الاشتراكية تعمل وتكسب فهى تســتطيع أن تختـــار زوجها بهداية غرائزها . وهو يرى ان هداية الغــرائز أدعى الى ترقية السلالات البشرية من اى اعتبار آخر من الاعتبارات الحاضرة فى الزواج . كأن تنشد المراة فى الزواج كفيلا يكفل لهـــا العيش بدلا من أن تنشد فيه حبيبا ومحبا اذا رات وزارة التطور ذلك

وهو من حيث الدين ، او بكلام اصـــح ، من حيث المعـــانى الدينية ، يؤمن بالتصوف «البرجسونى» . وان البصـــيرة هى التى تهدى الذهن ، وان التطور يحمل فى نزعته عناصر الرقى . وقد الف ثلاث درامات عن الدين ، وهى وان لم تدل القارىء على انه صريح الايمان بالله فانها تدل على الاقل عـــلى انه مشـــغول البال بهـــذا الموضوع . ولكن لا يمكن مع ذلك ان يقال أنه ملحد . فانه يرى أن الوظيفة هى اصل العضو ، وان العقل هو الاصـــل للجسم . وان الفكرة هى الاصل للمادة . وان وراء الكون الظاهر عقلا مختفيا . وقدحمل على «داروين» لانه حين عالج موضوع التطورنظر اليه نظرة مادية فأزال منه القصد والغاية ، وجعـــل ظهـــور الانواع الجديدة وقفا على بقاء الأصلح . وهـــذا لا يعنى عنـــد «داروين» اكثر من الاعتماد على المصادفات العمياء ، وان التطـــور يجـــرى جزافا بلا قصد . فى حين أنه هو ، أى «شو» يرى أن الحياة تهدف الى غاية تسير نحوها على بصيرة هادية . وكأنه يقول : ان الحياة هى الله

من داروين الى برجســون

من الاهمال العظيم أن نعنى بحركة التجديد فى الادب دون أن نلتفت الى عناية الادباء بالدين

صحيح أن الاديب الاوربى الآن لايبالى الموضـــوعات الدينية كثيرا ، كما كان يباليها «فولتير» مثلا قبل قرنين تقريبا . ولكن ذلك يرجع الى أن الاضــطهاد الدينى كان قويا أيام «فولتير» . فلم يكن اهتمام هذا الاديب العظيم به الا على سبيل الجهاد للحرية فقط

أما الآن فاننا بفضل «فولتير» وغيره من الذين حاربوا الظلم والظلام نعيش فى جو من التســامح الدينى لا يبعث الاديب عــلى الجهاد للحرية . ثم ان محور المدنية الحاضرة يعتمد فى حركته على الاقتصاديات ، ولذلك انتقلت هموم الادباء ، أو معظم همومهم ، من الدين الى معالجة الاقتصاديات

ولكن التجديد الادبى كما هو مشاهد الآن ومنذ اربعين سنة فى انجلترا ، يرافقه تجديد دينى ترى علاماته فى كثرة المؤلفات التى يضعها كبار الادباء . وفى اهتمام الجمهــور المتعــلم بالفلســفات الشرقية عامة وفى الدعوة الى محاربة المادية بألوان من العقــائد «الدينية» كالروحية والحيوية والبشرية

واول من القى الحجر وعــكر المياه هو «داروين» . ولم يكن «داروين» أول من تكلم عن التطور ، فقد سبقه «لامارك» و «جيته» بل سبقه جده لأبيه «ارازموس داروين» . وانما امتــاز «داروين» بوفرة الشواهد التى اعتمد عليها فى التدليل على تسلســل الاحياء الحاضرة من أحياء قديمة بائدة ، وايراد هذه الشــواهد فى سلسلة

منطقية مقنعة ، بل مفحمة . ثم ان الكنيسة وقفت موقف العداء ، فصار المذهب الداروينى حربا بين الكنسيين والتطوريين . وهذه الحرب هى التى اكسبت هذا المذهب قوة وانتشارا

ولكن منذ أيام «داروين» ظهر لمذهبه عدو جديد غير الكنيسة. وقد وجد انصار «داروين» ان الانتصار على الكنيسة ليس شيئا عظيما ، ولكن الانتصار على هذا العدو الجديد لم يكن سهلا . ولا يعد حتى الآن كذلك

وهذا العدو الجديد يؤمن بالتطور والتسلسل ولكنه لا يؤمن بـ «داروين» . وذلك لان «داروين» اعتمد على «تنازع البقاء» و «الانتخاب الطبيعى» كأنهما العاملان الوحيدان تقريبا فى تطور الاحياء . واذا نحن تأملنا هذين العاملين الفينا معناهما ينحصر فى المصادفة . فكأن الطبيعة عمياء تخبط فى التطور ، وكأنه ليس وراءها ارادة او عقل . وهذه هى المادية الصريحة

ولذلك نجد منذ ايام «داروين» حركة قوية يتزعمها «بطلر» الذى كان يؤمن بالتطور ولكنه كان يقول بأن الاساس أو المحرك لهذا التطور هو الارادة أو العقل . وأن الانسان لم يبلغ انسانيته الا لانه اراد ان يكون انسانا . فهذه الانسانية لم نبلغها مصادفة بتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى . ولم يكن ظهورنا على الارض خبطا ومصادفة ، كما يعتقد «داروين» . وانما كان لاننا أردنا وقصدنا الى الغاية التى انتهينا اليها . ولا عبرة بالقول بان أسلافنا من الاحياء الوضيعة لم تكن تعرف هذه الغاية ، لان عرفانها بها لا يقتضى الشعور او الوجدان . وهذا لا يمنع ان ارادة التطور الى الانسانية كانت مستقرة فى نفسها

وهذا النظر الغيبى الصوفى العلم ، أو الايمان بان وراء الظواهر قوة خفية تعمل للرقى ، لا يمكن حذفه بالسهولة التى يبعثها البحث السطحى . فان التعمق فى هذا الموضوع ان لم يؤد الى الايمان فانه سيؤدى على الاقل الى الشك فى المادية

وكلمة «المادية» تؤدى الآن معنيين فى أذهان المفكرين. أحدهما

ذلك المعنى الفلسفى الذى نعنى به الايمان بما يخالف الروحية والاقتصار على المحسوسات او المعقولات . والآخر ذلك المعنى الإقتصادى الذى نقصده حين نفسر التاريخ تفسيرا ماديا ، فلا نرى وراء الحادثة او الشخص سوى الظروف المحيطة التى تؤثر فيهما. والواقع أن هذا «النظر المادى للتاريخ» الذى أذاعه «ماركس» يشبه تمام الشبه ذلك النظر المادى للحياة الذى اعتمد عليه «داروين» فى تاريخ الاحياء . اى التطور . فكل من «داروين» و «ماركس» يكبر من شأن الوسط . بل يكاد يقول انه العامل الوحيد فى تطور الحيوان أو المجتمع ، ويصغر من شأن الحى ويكاد يجعله ضحية الوسط

والآن تسمع فى بعض الاوساط ان مذهب «داروين» قد مات . وقائلو هذا القول لا يعنون انهم لا يؤمنون بالتطور وانما يعنون أن تنازع البقاء وبقاء الاصلح ليسا هما المحركان للتطور . وان الاحياء «حيوية» تسمو الى قصد وتتوخى غاية

وهذه «الحيوية» هى الآن مذهب يعارض المادية فى الفلسفة. وقد عادت الكنيسة الانجليزية بعد مشاكسة طويلة تؤمن بالتطور وتقول به لانها رات فى هذه الحيوية شيئا قريبا من الروحية ، واعترافا بان فى الكون عقلا يدبر . وكان «بطلر» أول من بذر هذه البذرة . ثم جاء بعده «برناردشو» فقال أيضا بقوة الحياة . واخيرا جاء «برجسون» العالم الفرنسى ، فشرح واسهب واستطاع أن يشق شقا بين الماديين فيكتسب منهم البعض ويلقى الشك فى أذهان البعض الآخر . وهو الى الآن محور المعركة ورجاء الروحيين . وهو يرى أن الحياة نفسها دائبة لا تفتر فى التطور ، وهى ترمى الى قصد وان لم يكن معينا . وقد يأتى يوم بعيد نعرف فيه غايتها ونقف منها على اسرارها . وذلك أن الحياة قد اخذت طريقين فى تاريخ الاحياء فى الماضى :

طريق العقل ، كما نراه على اكمله فى الانسان

وطريق الغريزة ، كما نراها على اكملها فى الحشرات

وكل من العقل والغريزة قد نشأ لمصلحة الحيوان للبحث عن الطعام وطلب الانثى والهجوم والدفاع ونحو ذلك . ولكن نحن نرى الآن أننا قد صار لنا من هذا العقل الوضيع ذهن فلسفى يستطيع ان يتجرد من مطالب الطعام واللقاح الى التفكير فى الكون منشأ وغاية . واذن — يتساءل «برجسون» — لماذا لا يكون فى مقدور الانسان أن يستخرج من غرائزه بصيرة يستطيع ان يكشف بها الحقائق كشفا لدنيا بلا عناء ولا تفكير ، كما تهتدى الحشرة الى فريستها أو انثاها بلا تفكير أو تدبر

والغرائز كامنة فى الانسان قد تغلب عليها العقل ، ولكن يمكن احياؤها فى اى وقت واستنباط البصيرة الفلسفية منها . وهذا هو النظر الصوفى على اقصاه وأبلغه . وهو ايضا نظر طائفة من الادباء الذين يحاولون تجديد الدين . وفى مقدمة هؤلاء «برناردشو» . فان هذا الاديب يخاف العلم خوفا حقيقيا مع أنه يرى فيه الرجاء لتحقيق السعادة بتوفير الخيرات للناس . فهو لذلك ينذر الناس بأن مصيرهم الى الفناء والدمار اذا لم يعتمدوا فى حياتهم على الدين . ولذلك حمل حملته المنكرة على «داروين» لانه كما يقول «بطلر» قد الغى العقل من الكون ، ووضع تنازع البقاء وبقاء الاصلح مكانه . فكأنه بذلك قد جعل القتال والحروب والتناحر والمزاحمة الى الموت سننا ، أو نواميس ، قد شرعتها لنا الطبيعة . فلا بأس من أن نسير فيها . وهذا هو الدمار

والخوف من تقدم العلوم،والحذر منها،اذا لم يرافقها دين ، يتضح فى جميع ما كتبه «شو» و «ولز» . فقد كتب هذا الثانى جملة مؤلفات عن الله والدين ولكنه الحد اخيرا ، وسكن الى الالحاد على الرغم منه . وأصبح يشبه القائلين بالبشرية اى الايمان بالانسانية فقط ، أصلا وغاية ، ويعمل لرقيها . ولكنه مع الحاده هذا يدعو الى الدين البشرى لانه يخاف مادية العلم ، وأن يؤدى تقدمه الى زيادة التنازع والتناحر فيقضى هذا التقدم على الحضارة

وهنا يجوز لنا أن نتساءل : هل الباعث الحقيقى الى هذا

الاهتمام بالدين عند «بطلر» و «ولز» و «برجسون» هو الاصطدام بحقيقة لا يمكن الهروب منها،أو هو الرغبة الحارة في ايجاد عواطف دينية رحيمة توازن المنطق العلمي القاسي ؟

لندع هذا الآن . ولكن يجب أن نقرر هنا أن هذا المنطق العلمي ينطوي على قسوة تكاد تدفع بالانسان الى الفرار منه الى أية عقيدة يتماسك بها كيان المجتمع ولو كانت كاذبة . فقد عبر «برتراند روسل» عن هذا المنطق العلمي احسن تعبير في كتابه «طوالع العلم» فوصف كيف يكون الناس حين يستفيض الروح العلمي ويسود الحكومة والتعليم والنظام عامة . فاذا به يخرج بعد هذا بجهنم متقنة الوضع محبوكة الاطراف ، حيث يتغلب العبقريون ويتزاوجون فيما بينهم فتكون منهم سلالة منفصلة في بناء الجسم والعقل تستبد بالعامة وتحرم على افرادها التعمق في درس العلوم الخ

هذا المنطق القاسي الذي يخيف الادباء في انجلترا وغير انجلترا هو الذي يدفعهم الى تجارب دينية جديدة غير بصيرة «برجسون» . فمن ذلك هذه الثقافة الجديدة التي تفشت في الاوساط المتعلمة في أوربا عن درس الاديان الشرقية ، وخاصة البوذية والهندوكية . ومن ذلك أيضا هذه الحماسة أو هذا التلهف لدرس الطبيعيات الجديدة على يد «جينز» و «ادنجتون» العالمين الانجليزيين الذين يقولان بأن وراء الكون فكرا مدبرا ، ويجنحان الى غيبيات «عصرية» تشبه غيبيات «افلاطون» من حيث ان وراء المادة فكرة

ولم يبلغوا بعد نهاية هذه التجارب . فمنهم المؤمن القديم ، ومنهم الذي يوهم نفسه بأنه يؤمن بايمان جديد . ومنهم المتردد ، ومنهم الملحد الذي سكن الى الحاده سكون اليأس . ثم منهم اخيرا «البشري» الذي يسكن الى ديانة بشرية ليس فيها شيء من الغيبيات ، اذ هي مجموعة الجهد البشري الرقي لا أكثر

ولكن لن نفهم الحركة التجديدية في انجلترا بل في عالم الثقافة الاوربية حتى نولي هذه الافكار بعض انتباهنا

ولـــز

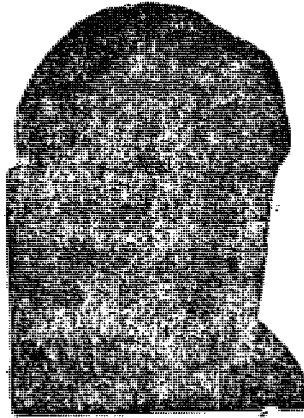
كان الاديب الناشىء فى انجلترا يقضى تلمذته فى درس الشعر لتاريخ والادب القديم . أما الآن فانه يبدأ بدرس الآراءالاقتصادية لاجتماعية . وكان الاديب قبل نحو مائة سنة يحوم حـــول الآراء جتماعية ولا يكاد يمسها ، أما الآن فانه ينغمس فيهـــا . وتعـــود ذه الظاهرة الى ان الوســـط القـــديم لم يكن معقـــدا ، ولم تكن سائل الاجتماعية والاقتصـــادية تبـــرز بروزها الحـــاضر وتقسر فكرين على التفكير فيها ومحاولة حلهـــا . ويجب أن لا ننسى أن وسط يؤثر فى المذاهب الادبية بأكثر جدا مما تؤثر المذاهب الادبية الوسط . وذلك أن الاديب يستمد الهاماته وعواطفـــه من البيئة تى تحيط به سواء أكانت اجتماعية أم اقتصادية أم ثقافية . وهو ستجيب لها او لواحدة منها بمقدار الصدمة التى يصطدم بها ذهنه . ذا كانت الحال الاجتماعية أو الاقتصادية من التعقيد بحيث تنبـــه توقظ ، كما هى الآن بمفاجآتها وحروبها وأزماتها وثوراتها ، فان لاديب الناشىء يضطر الى درسها ويعنى بها أكثر من عنايته بالادب قـــديم

وقد سبق أن قلنا أن الثقافة الانجليزية أصبحت اجتماعية . الآن نقول ان الادب الانجلزى اصبح اجتماعيا . ولو أننـــا قابلنا ين أديبين عظيمين يغمران عالم الادب الآن مثـــل «شو» و «ولز» الادباء الذين عاشوا فى القرن التاسع عشر لالفينا الفرق واضحا . ان اولئك الادباء لم يعرفوا القصة الاجتماعية كما يمارســـها الآن ولز» ولم يعرفوا الدرامة الاجتماعية كما يمارسها «شو»

وقد ظهر أدباء مجددون لهم بريق وحرارة . ولكنهم لم يستطيعوا الى الآن ان يكسفوا ببريقهم «شو» و «ولز» . وذلك لان هذين الكاتبين تناولا الحياة الانجليزية بمشرط الجراح ، ودأب كل منهما فى ايضاح العلل والامراض حتى اصطبغ تفكير المفكرين عامة بآرائهما . وانت حين تقع على راى مخيف ، بل مرعب ، لـ «برتراند روسل» او للآنسة « ايثيل مانين » او لـ «هولدمان جولياس» او الآنسة ابنته (فى امريكا) فانك تستطيع أن تبحث عن البذرة الاولى فى هذين الكاتبين . وايضا عندما تجد اسقف برمنجهام يقف فى كنيسته ويجرح شعور المؤمنين حين يصرح لهم بأن القديس فرانسيس لم يكن يستحم ، فانك تستطيع ان ترجع فى استقصاء هذه الوقاحة الى الروح العلمى الذى يكتب به «ولز» والى أن القداسة التقليدية عنده لا تساوى نظافة الجسم

ولم يقتصر «ولز» على القصة الاجتماعية . فان دراساته فى الموضوعات الاجتماعية قد تعددت . فانه الف كتبا مستقلة عن الاشتراكية والتاريخ والتنبؤات الاجتماعية والدين والاقتصاد.وهو لم ينس نزعته الأولى وهى النزعة العلمية . فان أول كتاب الفه كان عن التشريح . وقد حرر ، ولم يؤلف ، كتابا ضخما عن المعارف العلمية الحديثة . وله قصص يعتمد فيها على نظريات علمية سواء فى البيولوجية او السيكلوجية . وقد ورث «جول فرن» فى القصة الخيالية التى تعتمد على العلم ، والف فى الحروب الهوائية القادمة . وقد عاش الى ان راى بعينيه ارجاء الجو تنبض بالمواخر الجوية ، كما راى اساطيل الطائرات تدك برلين ولندن . وله خيالات علمية عن طعام الآلهة ، والجنون الذى ينشأ من مركب النقص

ومع هذا الروح العلمى الذى يسود ثقافة «ولز» فانك تقرأ قصته النابضة بالحركة فلا تشعر باى نقص أو خلل فى فنه . وهو اقرب المؤلفين الى «دكنز» وله عطف خاص على الفقراء والمشردين والسكارى . ولكن عطفه ليس عطف البكاء والدموع ، وانما هو



ولــز

عطف الحب والضحك والاستهانة بمشقات الفاقة والحرمان . كما ان قصصه تغص بالافكار التى تنقض وتهدم ، كما تبنى وتكمل

وقد الف قصصا عن الزواج والحرب والعقاقير . وهو فيهــا جميعها ينحو نحو غايتين هما الحرية والتقييد ، اى الحرية للفــرد فى تفكيره وعقائده ومسلكه الشخصى ، والتقييد للنشاط الاقتصادى الذى يجب أن تقوم به الجماعات دون الافراد . ونقول بعبرة اخرى انه يطلب الاشتراكية ولكنه لا يريد أن يتقيد بمذهبها كأنها عقيــدة ماركسية لا يجوز مخالفتها

ويعد «ولز» الآن عند كثيرين فى أوربا الاب الروحى لحضارة المستقبل،كما هو زعيم التفكير الحر والدعوة الى البر فى السياسة

فهو ينتقض الدعوة الوطنية ويدعو الى العالمية . وهو الخصم اللدود الآن لــ «موسولينى» يجد المضومون عنده ابدا صــــوتا صارخا لمكافحة الاستبداد . وقد دعا الى الجمهورية فى انجلترا مع ان العرش ليس مكروها هناك . وانما دفعــه الى ذلك كراهتــه للميزات الاجتماعية التى تنشأ من الميراث

وأدب «ولز» مع كل ما ذكرنا ، هو أدب صحفى . فلو اننــا تناولنا كتابا أو قصة الفها قبل عشرين سنة لشعرنا بالقدم والتاخر

باديين عليها . فقد الف مثلا قصة عن المرأة التى تطلب المساواة بالرجال وحقوق الانتخاب . وكلاهما قد تحقق الآن . فالقصة لا تدلنا الآن عن حال نعرفه فى الوسط الراهن . والف كتابا عن مستقبل امريكا حوالى سنة ١٩٠٣ ، لو انه قرىء الآن لخالف الواقع . وله من هذه المؤلفات « الوقتية » عدد كبير نقصت قيمته او زالت تماما لانها كتبت لغير وقتنا ، فخدمت قراء ذلك الوقت وانتهت عند ذلك . وهى هنا تشبه سائر مؤلفاته الاجتماعية التى تعالج احوالنا الحاضرة ، فان قيمتها ستزول ولا يبقى غير دلالتها التاريخية . والدنيا دائبة فى التطور . ولذلك فان النزعة الصحفية فى الكاتب ستعمل لفنائه لا لخلوده . وهذا الفناء هو فى الواقع تضحية الكاتب بنفسه من اجل جيله

ولسنا نعنى ان كل ما يكتب عن التطور الحاضر من المدنية ستزول قيمته الفنية عندما يتبدل هذا التطور . وانما نعنى أن شيئا كثيرا من قصص «ولز» ودراساته قد اصطبغ بالصبغة الوقتية «الصحفية» ولذلك ستنقد فيه الاجيال الآتية ما نجده نحن من لذعة الحقائق ومرارة الواقع

ولكن اذا كانت هذه الكتب «الصحفية» ان تعيش فذلك لانها ادت مهمتها فى الاصلاح الذى نشده مؤلفها . فاذا ماتت هذه الكتب فان موتها برهان نجاحها

وقد سبق ان راينا مثل ذلك فى درامات «ابسن» . فان «بيت عروس» مثلا كانت تعد من الدرامات الثائرة ، لانها تطلب للمرأة شخصية مستقلة عن الزوج والاولاد . ولكن ثورتها ضعفت، لان الناس قد آمنوا بهذه الافكار للمرأة وصرنا نحن لذلك لا نستطرفها ولا نستهول آراءها . وهذا برهان على نجاحها لا على فشلها ، اذ ان نفوسنا نحن المتمدنين قد اشبعت بها حتى لا نجد فيها جديدا

واغلب الظن ان ما سيعيش للأجيال الآتية من «ولز» هو القصص المسلية مثل «كبس» أو «بيلبى» التى لم يؤلفها الا ليرفه

عن نفسه سلم الدرس لهذه الفوضى التجارية والصناعية والمالية التى تجتاز بها انجلترا ، بل الدنيا ، الآن . وذلك لان هذه الفوضى ستزول ، فلا يعود يباليها جمهور القراء أو يقرأون عنها تفاصيلها المؤلمة فى كتب «ولز» . ولكنهم سيحتاجون الى الضحك بقراءة «الفقير كبس» الذى أثرى فجأة ، فلا يعرف كيف يعيش عيشة الاغنياء . أو بقراءة «بيلبى» الصبى الهارب من أمه الذى يشرد فى الحقول ويشارك رجلا قد احترف التشرد والسرقة ، فيتعلم منه حرفته ، ويسرقه هو نفسه ، ثم يعود الى أمه وقد تعب من قلق العيش فى التشريد ، ينشد أمن الحياة بين ذراعى الأم

دراســات ولز الاجتمـاعية

اذا تحدث الانسان عن الادب الانجليزى خطرت «القصــة» بالبال . ولكن ليس معنى هذا ان القصـــه هى احسن ما فى الادب الانجليزى ، وانما معناه أنها تغمره بكثرتها . ففى كل عام تطبــع فى انجلترا نحو ثلاثة آلاف قصة : ٩٩٩ فى الالف منها هو مجموعة من الهراء والسخف والعواطف المبهرجة . والادب الانجليزى الآن اوسع من ان ينحصر فى القصـــة أو «الدرامه» لان الادب تعــالج الوانا وصيغا أخرى تتناول الترجمة أى الســـيرة التحليلية ، بل تتناول أحيانا التاريخ . وفى انجلترا لون من الوان الادب قلما يتقنه غيرهم ، هو «المقالة» التى ترجــع فى تقالــدها الى «ســتيل» و «أديسون» و «ماكولى» . وللمقاله مقام فى انجلترا الآن يزيد على مقام القصة . وقد عالجها جميع المجددين والرجعيين مثل «شــو» و «ولز» و «تشسسترتون» و «بيلوك»

وقد وجد «برناردشو» أن الدرامة تعجز عن التحليل الكافى الذى يفى بتفاصيل الموضـــوع . وهـــو لذلك يزود الدرامة التى لا تزيد صفحاتها على خمسين بمقالة قد تبلغ مئة صفحة . ومقالات «ولز» لا تنقص فى القيمة الفنية عن قصصه . ثم هل هنـــاك من القصص الحديثة ما يسمو على ما كتبه «أندريه موروا» أو «ليتون ستراتشى» من السير التحليلية ؟

ويبدو أن الأدب الانجليزى ســـيمعن فى الاتجـــاه الى هـــذه النواحى ، وذلك لانه يغـــزو ميادين جديدة فى الثقافة . فالاديب يكتب الآن فى الاقتصـــاديات والاجتماعيات ، وكثـــيرا ما يجـــد أن

القصة او الدرامة أداة ناقصة لاتفى بغرضه فيعمد الى المقـــالة يؤلف اجزاءها حتى تستوى جسما فنيا كما يروق الذوق بشكله ، يحرك الذهن بموضوعه .

بدأ «ولز» يؤلف القصص ، وانتهى بتأليف المقالات والكتب. ولم يكن فى ذلك منحدرا ، وانما كان صاعدا . لانه وجد انه كلمـــا إزداد ثقافة تناول ذهنه من الموضوعات ما تعجز القصة عن ايفائه حقه . وقد راجت مؤلفاته ــ غير القصص ــ رواجا عظيما جدا . فان مؤلفه فى التاريخ العام بيع بمئات الالوف ، وترجم الى جميـــع اللغات الحية تقريبا . وتعددت طبعاته ، فمنهـــا الانيق المزخرف الذى يباع بالجنيهات ، ومنها ما يباع بخمسة قروش فقط

ولــ «ولز» كتب عدة فى الاشتراكية او التفكير الاشـــتراكى الذى يصبغ قصصه ايضا . وقد عالج الاقتصاديات فى كتاب ضخم لا يصدق من يقرأه أن مؤلفه من ابرع القصاصين فى انجلترا الآن . ثم هو قد امتد نشاطه الى العــلم ، ولذلك حرر كتابا فى المعـــارف العلمية بمساعدة ابن «جوليان هكسلى» تناول فيه تلك المعـــارف التى تؤثر فى سعادة الانسان . بل لقد الف كتابا عن التعليم،وصف فيه مدرسة جديدة هى مدرسة « أوندن » التى ابتكر مديرهـــــــا « ساندرسون » نظرا جديدا للتعليم هو أن يكون عالمى الغـــاية . هذا النظر هو الذى حدا بــ «ولز» الى تأليف التاريخ العام للعالم

ويعتمد «ولز» كثيرا على العلم . فاذا تخيل «طوبى» للحياة المثلى كان العلم اساس خياله . وما هو أن ظهرت نظريات «فرويد» فى «العقل الكامن» ، حتى سارع الى اســـتغلالها . فألف قصـــة «والد كريستينا» وهو مجنون يعالج بالتحليل النفسى على طريقتى «فرويد» و «يونج»

ومن اعظم ما يأسف له القارىء ويشعره بالمأساة البشرية ، هذه الحيرة التي تقلب فيها «ولز» وهو يحـــاول أن يؤمن بمبـــدأ روحانى وراء المادة . فانه بدأ بالاعتقاد ان لله شخصية مســـتقلة

عنا . ثم اخذ يستند الى آراء «يونج» السيكلوجي السويسري المعروف ، ويقول أن العقل الكامن عندنا انما هو عقل النوع البشري كله . وان لهذا العقل الجماعي شخصية مستقلة عنا كأننا يجب أن نؤمن بها ايمانا . واخيرا ، وبعد التخبط الطويل ، انكفأ الى نفسه يتكلم فى تواضع كما يتكلم البشريون الذين يؤمنون بأن المرجع الدينى ، بل كذلك الغاية الدينية ، يعودان الى محور واحد هو الانسان بلا حاجة الى عقائد غيبية . والكتب «المقدسة» التى يرجع اليها هؤلاء البشريون هى كتب العلم والادب والفلسفة ، بل كتب جميع الاديان ايضا . وقد لا يكون هذا عجيبا من رجل نشأ نشأة علمية ، له كتاب فى تشريح الحيوان ، وأشرب مبادىء «هربرت سبنسر» المادية . فانه وان كان قد عرف بعد ذلك «وليم جيمس» السيكلوجي الامريكى ، أول من دعا دعوة روحية عن طريق السيكلوجية ، فقد بقى فى نفسه الميل الى التحليل العلمى . وهذا الميل لم تؤثر فيه الروحية الجديدة التى انطلق فيهـا كل من «ادنجتون» و «جينس» بلا سبب معقول . اذ ان كل ما يستندان اليه انما هو شكوك علمية بعيدة عن اليقين . وكذلك لم يتأثر ، كما تأثر « شو » بالمبدأ الحيوى الذى يقول به « برجسون »

وقد اصبح «ولز» كتلة عقائد . فان آراء الشباب التى كان يتبسط فى شرحها فى مقالاته وقصصه اصبحت ، بعد أن بلغ السبعين (فى ١٩٣٧) من عمره عقائد جامدة . فهو اشتراكى يطعن من آن لآخر فى « ماركس » زعيم الاشتراكية . وكأنه بذلك يريد ان يثبت استقلاله . وهو عالمى يطعن فى الوطنية ، ولكنه لا يكف ايضا عن الطعن فى عصبة الامم مع أنها بذرة العالمية . اذ يرى فيها تقصيرا عن العالمية . ثم هو مع هذا يريد حضارة غربية قائمة على الآلات الضخمة التى تزيد فراغ الناس . ويريد ديانة بشرية قوامها التطور . ويريد نظاما علميا للحكومة بحيث يصبح تنظيف الشارع ، وبناء المنزل ، واطعام الاطفال وتعليمهم ، بل استنتاجهم ، من مهماتها الاولى

واذا أردنا ان نقابل بين « شو » و « ولز » امكننا أن نقول أن ذهن « شو » هو ذهن التحليل والنقد والهدم ، بينما ذهن « ولز » يتجه نحو التأليف والبناء

ويعيش « ولز » فى الحضارة القائمة الآن وهو يعد الناس لحضارة قادمة . فهو اكثر الكتاب شعورا بأن اوربا تنتقـــل الى النظام الاشتراكى القريب . وهو يطالب المعلمين والكتاب أن يعدوا الناس لهذا الانتقال . ثم هو يرى الخطر العظيم من التهاون فى فهم هذه الحقيقة ، لان آلات التدمير اتقنت اتقانا فظيعا . ونحن نشرف بها ومنها على هاوية المستقبل التى قد نتردى فيها ، وعندئذ يكون انقراض النوع البشرى ، كما انقرض نوع الدينصور وانواع أخرى . وعلى الطبيعة أن تشرع من جديد فى استيلاد حيـــوان آخر يأخذ مكاننا ويسلك بالحكمة ، التى لم نسلك بها . فاذا تركنا السياسـة الحاضرة تجرى مجراها والتنافس التجارى يسير سيره الطبيعى فلن يكون ثم مفر من حرب كبرى اخرى قد تقضى على الحضارة . ومع أن الاشتراكيين الانجليز يقبلون الملوكية القائمة ، فان « ولز » يلح فى طلب الجمهورية ويصرح بذلك فى الصحف وغايتـــه اعداد الامة الانجليزية للنظام الصناعى الجديد وهو نظام اشتراكى . ثم هو لايعرف التسوية مع خصومه ، فهو خصم صريح للبابوية والفاشية كما هو خصم للملوكية والوطنية والحرب والتعصب القـــومى او الدينى

ثم هو بنزعته العلمية لا يرضى بالنظم البرلمانية الحـاضرة ، لانه يعتقد أن احوالنا الاقتصادية قد بلغت من التعقد بحيث تحتاج الى خبراء أى علماء فى الصناعات والعلوم الاقتصـــادية . وأن الاعتماد الآن فى ادارة شئون الامة على أيدى السياسيين وحـدهم انما هو بمثابة لعب الاطفال بالنار . ويرى فى هذه الازمة القائمة (١٩٣٣) البرهان على ذلك

كتبت هذه الكلمات فى ١٩٣٣ . وانا أعود اليها بالتصـــحيح والتنقيح فى ١٩٤٥ بعد الكشف العظيم للطـــاقة الذرية واختراع

القنبلة الذرية.وقد وقف منهما «ولز» موقف المتردد بل الواجل. اذ هو يصرح بأنه لايعرف اذا كان الناس سيتطلعون بهذا الكشف الى آفاق السعادة فيؤلفون حكومة عالمية تنظم هذا الكوكب ، أم هم سوف يشرفون منه على هاوية المستقبل حين تتناحر الوطنيات وتتقاتل الامم الى الفناء . وهو الى التشاؤم اميل منه الى التفاؤل . ثم هو فى سنيه الاخيرة قد ازداد حدة فى بشريته ، ولذلك صار يدعو الى الالحاد الصريح . وزادته الدعوة الى العالمية اتجاها نحو الالحاد ، كأن دراسة الجغرافية والاقتصاد والعلوم يجب أن تأخذ مكان الدراسة للغيبيات لايجاد السعادة للبشر على هذه الارض



ولـــز بين الوطنية والعالمية

ليس فى العالم خصم للوطنية يدعو الى العالمية مثل « ولز »، وهو لا يفتأ يعزف على هذا الموضوع . وهو على هذه الحال منذ نحو ثلاثين سنة ، لم يتغير حتى مدة الحرب . فانه هو الذى وضـــع عبارة « الحرب لانهاء الحرب » أى انه كان يدعو الانجليـــز الى التجند وقتال الالمان كى تكون هذه الحرب الكبرى نهاية الحروب ، باقامة هيئة تقضى القضاء النافذ فى الخلافات التى تقوم بين الامم فلا يحق لدولة ان تعلن حربا على دولة اخرى بل لا يجوز لدولة أن تجند جيشـــا

وفى هذا العام (١٩٣٣) القى خطبة فى مدرسة الاحـــرار الصيفية فى اكسفورد ، فدعا الى انشاء عصبة من الفاشيين الاحرار كى يقاوموا الفاشيين الذين يدعون الى الوطنية الحادة مثل اتباع « موسولينى » فى ايطاليا أو اتباع « هتلر » فى المانيا

فالرجل لم يتغير عن دعوته الاولى التى دعا اليها حوالى ١٩٠٢ وهو فى هذه الدعوه يرث الرسالة من « فولتير » و « روســـو » وسائر البشريين من الانجليز والفرنســـيين . وقد الف كتـــابه « خلاصة التاريخ » وهو ينظر الى العالم كأنه أمة واحدة . والكرة الارضية عنده هى « القرية الكبرى » لجميع البشر . ولذلك أيضـــا طعن فى كل من « الاسكندر » و « نابليون » لانهما من رجال الحرب والفتح . وترتيب هذا الكتاب هو بدعة فى تأليف التاريخ، فانك لاتجد فيه تاريخا لكل أمة على حدتها .وانما تجد موكبا سائرا يدلك على التقدم البشرى بصرف النظر عن الامة التى ينتسب اليهـــا هـــذا التقـــــدم

ومنذ ثلاثين سنة أيضا اقترح تأليف حزب أو عصـــبة يكون أعضاؤها من جميع الامم يسيرون فيما سماه « مؤامرة مكشوفة » غايتها هدم الوطنية والاتجاه بالناس الى الحرية والعلم والعالمية، أى أن يكون العالم امة واحدة لها حكومة مركزية تتـــولى التعليم والنظام المالى . وهذه الهيئة يجب أن تؤلف للعالم موسوعة كبيرة تترجم الى جميع اللغات ، فتكون دستور الثقافة ، يعاد تنقيحها من آن لاخر كى تتجدد معارفها . فاذا قرأها جميع الناس فى مختلف الامم اتفقت آراؤهم السياسية عن فهم ، فلا يكون اختلاف وتعصب يبعثان على التنافر والحروب

ثم يجب أن تأخذ هذه الهيئة نظام التعليم أيضا ، فتمنع مثلا تدريس التاريخ اذا كان يبعث فى التلاميذ روحا وطنيا . كما يجب أن يستوى جميع التلاميذ فى العالم فى الحصول على أوفى قســـط من التربية ، لان الجهل الذى ينشأ فى أمة ما من اهمال التعليم قد يؤدى الى خطر كبير على سائر الامم . بل هو يرى أن تقوم هـــذه الهيئة بايجاد دين عام ، أو بعبارة أصح ، مزاج ديني عام لجميـــع الامم بحيث لا يؤدى التعصب الدينى فى واحدة منها الى ايقاع خطر بالامن العالمى

ثم هو يرى أن تحقيق هذا النظام العالمى لايمكن الا مع انشاء نقد عالمى واحد يتعامل به جميع البشر . فلابد اذن من انشاء بنك العالم يتولى اصدار النقود سواء أكانت من ورق أو من معدن

وفى « ولز » خصلتان ، تتضحان فى جميع مؤلفاته . احداهما نشاط فى نفسه يدفعه الى الاعجاب بنشاط الاخرين ، ولو كانوا من خصومه ، والثانية دأبه فى التنظيم والترتيب

فهو يدعو الى انشاء عصبة من الشبان يتولون تهيئة الاذهان واعداد العالم للدولة العالمية التى ينشدها . وهو هنا يضرب المثل بالفتيان الكشافة وفتيان الفاشيين ، مع أنه يكره نزعاتهم الحربية الوطنية . ثم هو لا يكف عن التنظيم ، فانه يؤلف القصة ويتعال بما

فيها من حب واغراء جنسى ، كى يشرح نظاما عن تأليف موسوعةأو موسوعات مختلفة

وقد استهوت هذه النزعة الولزية عددا كبيرا من المفكرين فى كل امة . ومع أن الآمال التى عقدت بعصبة الامم خابت وعرف الناس أن مبادىء الرئيس « ولسون » ضرب بها عرض الحائط ، وان الانتداب هو الاستعمار لايختلف منه الا فى الاسم ، فان كثيرا من التأييد الذى لقيته هذه العصبة يرجع الى هذه النزعة التى بعثها « ولز » والتى تجعل الناس يتشبثون بعلالات العالمية او الاممية ويرجون من العصبة المريضة أن تعود فتنهض وتكون بذرة لحكومة قوية تدير مصالح العالم العامة

ولا يفتأ « ولز » يجمع الشواهد والبراهين التى يقصد منها الى اقناع القارىء بأن خياله يمكن أن يتحقق . فهو يذكر لك « اتفاق البريد » بين جميع الامم من حيث أنه نظام عالمى . ويذكر لك المعهد الاممى لاحصاء القمح فى روما . فان هذا المعهد قد أنشاه رجل يهودى أمريكى وحبس عليه أوقافا . وله مندوبون فى جميع انحاء العالم يجمعون الاحصاءات التى تذاع على العالم عن حاصلات القمح كى تعرف الامم مقدار القمح وتحتاط للمستقبل من القحط . وليس شك أن هذا المعهد قد أفاد العالم وانه يمكن التوسع فى هذه الخطة . فتزداد مثل أعمال هذا المعهد حتى يستطيع أن يخرج احصاء كل عام عن جميع الحاصلات الزراعية والمعدنية . ومن مصلحة جميع الامم أن تقف على هذا الاحصاء الدقيق لان جهلها قد يؤدى بها الى نتائج اقتصادية توقعها فى خسائر كبرى

وهذه العالمية هى الآن حلم فقط ،لان النزعة التى تسود العالم السياسى الآن (١٩٣٣) هى النزعة الوطنية . ولذلك نجد جميع الامم تسارع الى اقامة السدود الجمركية وتدعو الى الوطنية الاقتصادية . وفى الوقت الذى يدعو فيه « ولز » هذه الدعوة العالمية يدعو فيه ولى عهد بريطانيا دعوة وطنية بندائه المشهور : « اشتروا البضائع البريطانية »

والمتأمل لاحوال العالم فى ضوء هذه الازمة الحاضرة وأمام تاريخ الاستعمار والاسباب الرئيسة للحروب ، وخاصة بعد ان اخذت مدرسة الاقتصاد الجديدة بقيادة « الميجر دوجلاس » تشرح نظرياتها وتبسطها بسطا وافيا ، لايمكنه الا ان يعتقد بأن التنافس فى التجارة الخارجية والرغبة فى الحصول على المواد الخامة الرخيصة واحتكار الاسواق هى السبب الاساسى للاستعمار . واذن فكل ما يعمل لنقص التجارة الخارجية يعمل أيضا لتخفيف الاستعمار ويمنع فى الوقت نفسه أقوى البواعث على الحرب . فان القائلين بالعالمية يقولون بالغاء الحواجز الجمركية وان تختص كل امة بالصناعة التى يليق لها مناخها ثم تبادل الامم الاخرى ما تصنعه من المصنوعات أو ما تنتجه من الحاصلات . وبديهى أن من يقول بحكومة عالمية يجب أن يقول بحرية التجارة على أوسع معانيها

ولكن حرية التجارة تبعث على المزاحمة التجارية والسعى للاستيلاء على أسواق العالم . وقد حاربت بريطانيا الصين كى تجبرها على شراء الافيون الهندى ، مع ان الصين كانت قد منعت الاتجار به . والسبب الاساسى للحرب الكبرى هو هذا السباق الى أسواق العالم بين بريطانيا والمانيا . والاساطيل لا يقصد منها حماية الوطن ، وانما يقصد منها حماية التجارة الخارجية . واكبر امة تعتمد على التجارة الخارجية هى بريطانيا . ولذلك كانت ايضا صاحبة أكبر الاساطيل

هـ . ج . ولز

فى ١٩٤٦ مات « ولز » وهـــو فى التاسعة والســــبعين . وقد كتبت عقب موته هذا الفصل التالى فى مجلة « الكاتب المصرى » ورأيت اثباته هنا :

كان « هـ . ج . ولز » أديبا علميا يكتب باللغة الانجليزية. ولكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزى فى قوميته . فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الكبرى » وقد كتب كثيرا لهذه الدعوة العالمية التى نسير الى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التى يزدحم بها عالمنا الحـــاضر من أثر العقائد الدينية والوطنيات واللغات والمذاهب والامبراطوريات

وربما ننسى اشياء كثيرة من « ولز » فى المستقبل . ولكن ليس شك فى اننا سنذكر بأنه الاب الروحى للعالم الجديد المتحد ، وبأنه اول من عمد الى وضع التفاصيل لحكومة عالمية ولغة عالميـــــة وموسوعات عالمية ، بل أيضا لوضع النصـــــوص والشروط التى يستطيع أن يعيش بها أبناء هذا العالم وهم آمنون من اســـــتبداد الحاكمين والاولياء حتى الآباء

واذا شئنا أن نعين الطراز الذى ينتسب اليه « ولز » وجدناه أقرب الى رجال النهضة الاوربية (من ١٤٠٠ الى ١٦٥٠) منه الى عصرنا . فهو من طراز « دافنشى » الرسام الجيـــولوجى البشرى المستقبلى . والاختلاف بينهما بسيط ، لان الاول استعمل الريشة ،

والثانى استعمل القلم ، ولكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه فى مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل

وقد روى عن « دافنشى » انه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزا لطيران الانسان ، هذه الامنية التى فكر فيها هذا المفكر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات « ولز » وهو يرى بعينيه فى العام الاخير من حياته هذا الكشف العالمى ، كنت اقول الكونى العظيم : الطاقة الذرية ، تخدم الانسان . وصحيح ان هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولكن ماذا فى هذا ؟

اجل ! لقد اهتز « ولز » من هذا الكشف ، بل تزعزع وتكلم فى تشاؤم . ولكن ماكان أحراه لو انه عاش سنوات بعد هذا الكشف ان ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد فى خدمة الانسان . ولابد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا فى خيال علمى ، بديع ، مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب البعيدة على أرضنا ، وكيف استولوا فى أيام قليلة على الارض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربى نحن الارانب ، فاذا جاءوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التى يزخر بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعودها . ولذلك تعفنوا وهلكوا

وجاءت الطاقة الذرية فى العام الاخير من حياة «ولز» ترمز الى هذا الخيال ، كما حطت الحمامة على راس دافنشى ترمز الى صعود الانسان الى السماء . وقد تحققت الرؤيا الاولى ، رؤيا « دافنشى » فهل تتحقق رؤيا « ولز » فى استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الادباء يتكاثر فى أيامنا . أجل ! أولئك الادباء العلميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية فى العلم ، أى تلك القوة التى تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقا فى الحياة الطويلة العريضة . حين يكد لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولايكون

لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن « ولز » عاش أيام النهضة الاوربية حوالى ١٥٠٠ ، لكان واحدا من رجال النهضة لانه كان يدعو فى حماسة الى « البشرية » وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لايامنا . كانت قبلا دعوة الى قراءة مؤلفات الاغريق والرومان القدماء ، أما الآن فهى فى معناها الامريكى الاوربى دعوة الى مقاطعة الغيبيات

وليس غريبا أن تنشأ هذه الدعوة فى الولايات المتحدة الامريكية حيث العلم مزاج نفسى ، وتطبيق عملى ، ومذهب دينى ، وليس من شك أن لكل هذا نقائصه ، بل شروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة الى مثل « هـ . جـ . ولز » كى يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل احداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن نتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك ان يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية

عمد « ولز » الى القصة ، وهو بلاشك قصاص ماهر، ولكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعى . وهناك قصص الفها فى الفترة الاولى من حياته الادبية يبدو أنه التذ كتابتها وسر بما فيها من براعة فنية . ولكنه فى السنين الاخيرة ، او بالاحرى منذ بداية الحرب الكبرى الاولى الى الآن ، جعل القصة وسيلة الى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولكن يجب الا نخطىء فنزعم انه اختار هذا الطراز من القصة العلمية لان الاختيار لامكان له . ذلك انه حين ابتدأ يكتب فى العقد الاخير من القرن الماضى كان العصر والظرف ، كلاهما ، يتيح الى حد ما نبوغا فرديا أو اقتحاما شخصيا ، فكان هناك مجال البطل فى القصة ، ينوى فيعمل ، ويريد فينجح ، أو على الاقل كان هذا هو الفهم العام . والاغلب أنه كان فهما مخطئا حتى فى ذلك الوقت . ولكن منذ بداءة هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد . كان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الاعمال

« تكيف » النبات وتوجه الارادات . ولذلك أصبحت قصص «ولز» رسائل مسهبة في التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجاه السياسى ، وانحط شأن الفرد فى القصة لهذا السبب

سألنى ذات مرة احد القارئين عن احسن كتاب قرأته فى اللغة الإنجليزية من حيث الاسلوب . فقلت له ببديهتى : كتاب «داروين» اصل الانواع . ولم أكن مازحا فى هذا لانى أحس ان اسلوب التفكير الذهنى عند «داروين» خير الف مرة من اسلوب العاطفة المزيفة او الخالصة عند « اوسكار وايلد » لأن الفن الذهنى خير من الفن العاطفى

واسلوب « ولز » الاديب العلمى هو اسلوب « داروين » ، لااسلوب « اوسكار وايلد » . ولو ان «ولز» نفسه سئل عن أسلوبه من اى الطرز هو لاجاب بقهقهة عالية ، لانه لو استطاع ان يكتبه بالعامية وان يصل منها الى غايته فى سعة الانتشار لما احجم

وقد استخدم « ولز » العلم بمهارة كبيرة فى القصة اكبر من المهارة التى استخدمه بها « جول فيرن » ولكنه وجد ان القصة لاتؤاتيه على ايضاح اغراضه ، فتركها وعمد الى ما وصفناه بأنه «رسالة مسهبة» فى شرح الموضوعات التى يتماس فيها العالمان : المادى والاجتماعى

ولعل اكظم ما حمله على ترك القصة انه رأى ان اغفال البطل منها يجعلها ماسخة . لان حيوية القصة بأشخاصها . واغلب القصص يجعل مرتكز هذه الحيوية الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامى الى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارىء صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التى عالج فيها « ولز » مشكلات المجتمع لن تعيش ، لان هذه المشكلات تتغير ويجد غيرها بتغير الوسط الاجتماعى الاقتصادى . لان مالنا من عواطف وأمان ، ومايرافقهما من سلوك وتفكير ، انما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعى الاقتصادى . ولذلك

فان القارىء لقصص ولز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، فى حين ان تلك القصص الاولى التى تحوى « ابطالا » سوف تقرأ فى لذة مهما طال عليها الزمن ، وخاصة تلك التى يعمد فيها « ولز » الى فكاهاته التى تقارب بل أحيانا تطابق ما خلفه « ديكنز » أحد أمراء القصة فى القرن التاسع عشر .

قال « ولز » فى كتابه « طوالع الانسان » وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم :

« لقد استغرق كفاحى لاجل نشر المعارف المثمرة جزءا كبيرا من حياتى الوجدانية ، فقد حاولت أن أجمع المعارف الراهنة كى يستطاع استغلالها فى المعيشة البشرية ، وكى احمل غيرى ومن هم اكفأ منى على أن يقوموا مثلى بهذا العمل . وكذلك عملت كى أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق . وهى نظم ، يتجاهل كل منها الاخر ، فى بلادة الذهن واضاعة الفرصة ، كما ان كثيرا من التشوش الذهنى فى التفكير البشرى يعود اليها . ذلك ان هذه الفلسفات والغيبيات المناقضة ، التى لم تتناسق ، تزحم الذهن البشرى . وعدم تناسقها هذا يرجع الى أن كلا منها يتجاهل الاخر وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ، لانى حين أعالجها أجد أنها تقلقنى وتربكنى . . وما لذهنى من ميزة خاصة أو نقص خاص انما يرجع الى صفة واحدة . فاذا مدحت لقيت أن عقلى يجابه المشكلات ، واذا ذممت قلت انه لايفطن للخفايا . فأنا لا أطيق التفاصيل المربكة أو الاكاذيب العرفية لانى أخشاها جميعا . . . وأنا أطرق فكرتى كما لو كانت سندانا . . »

أجل ! لقد طرق «ولز» طائفة من الفكرات ، ودق عليها فى تكرار . ولكن ، فى كل مرة ، كان يختار ناحية أخرى منها غير تلك

التى دق عليها من قبل . ولذلك انتقــل من القصـــة الى المقـــال الاجتماعى ، ثم جعل القصـــة تتناول بحوثا اجتمـــاعية مختلفة . واخيرا ترك القصة ، او كاد، الى تأليف الكتب الضخمة فى الاجتماع

وقد نجح كل من «ابسن» و «شـــو» فى اســـتخدام الدرامة للبحوث الاجتماعية . واحتفظ الأول بمئة فى المئة من فن الدرامة ، واحتفظ الثانى بأكثر من خمسين او ستين فى المئة . ولكن لا يمكن ان يقال ان «ولز» نجح فى استخدام القصة حتى الى الحد الــذى بلغه «شو» . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشـــكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحه القصة ، لان الاشخاص عــلى المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تحويه من عقد ولكن مؤلف القصة يضطر الى مثل هــذا الشرح ، فتنقلب القصـــة الى بحث اجتماعى ، كثيرا ما يتعارض مع أصول الفن فيها

عندما اتأمل حياة «ولز» ومؤلفاته أحس ان شهوته الذهنية الاولى هى العلم . فقــد تتــلمذ للعظيم «توماس هكســلى» جد «جوليان» و «الدوس» الذى جعل من نظرية التطور مذهبا كفاحيا، وقضى حياته فى مكافحة الظلامين والغيبيين ، كى يجعل هذه النظرية مألوفة تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح فى ذلك . وشىء من هذا الروح الكفاحى قد انتقل الى «ولز» . فانه حين الف «خلاصة التاريخ» ، بل حتى فى أواخر السنين من عمره ، لم يكن ينسى أن ينبه الى اننا كنا سمكا قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون ســـنة . فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين من السنين فى المســـتقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فمن التكهنات الخيالية هاتان القصـــتان : «حرب العــــوالم» و «ناس كالآلهة» . ومن التكهنات الحقيقية الحرب الاوربية الكبرى الثانية، والدبابات والطائرات ، والقنبلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة فى كل ذلك

ولكن «ولز» انقطع عن البحث العلمى ، لانه اضـــطر عقب حصوله على درجة «بكالوريوس فى العلوم» الى ان يسعى لرزقه ،

فاختار القصة الخيالية والفكاهية اولا ، حتى اذا زالت عنه الحاجة الملحة عمد الى البحوث العلمية الاجتماعية أو كما قال هو «محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظـام الاجتماعى» . وكأنه بهـذه البحوث قد استأنف اشباع شهوته العلمية الاولى ولكن فى الميدان الاجتماعى

وكتاب «خلاصة التاريخ» يعد حسنا من حيث انه محـاولة اولى فى اعتبار العالم امة واحدة تسير متساندة فى موكب الحضارة: الكتابة فى مصر ، والورق فى الصين ، والمطبعة فى ألمانيا . ثم بعـد ذلك انفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة فى مصر ، ثم نقود «الاسكندر» وجيوشـه وفتوحاته ، ثم انفجـار الحضارة الاغريقية المصرية الرومانية فى البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى اننا نرى ملكا هنديا فى بداية القرن الثانى قبل الميلاد يبعث الى الاسكندرية يدعو المصريين الى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ، ثم القرن العشرين، الى أن يعود استقلال الامم وانفرادها مستحيلا ، بل ضارا . اذ يجب التوحيد السياسى للعالم بحكومة واحدة

وقد عاش «ولز» أيام طفولته فى بدروم . وكانت أمه خادمة للاسرة التى تعيش فى الطبقتين العليين . وكانت امه ، كمـا هـو الشأن فى الخادمات ، تخشى صعوده الى احدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من ايام طفولته ذلك البعبع الذى يسكن فى الطبقة العليا . وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك الى الطبقة المتوسطة ،ولكن بقى فى نفسه خوف الفقر الى يوم وفاته . وعندى ان هذا الخوف هو ، فى سيكلوجية الاعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ، لانه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم فى ظلام البدروم . واصـبحت دعوته الى الاشتراكية هى الدعوة الفابية ، اى اشتراكية التطـور السلمى بالاصلاحات المتدرجة التى يمكن أن يقبلها أبناء الامة جميعهم فقيرهم وثريهم

وقد زار روسيا مرتين ، فلم يرتح الى اشــتراكيتها ، وفهم منها مثلما فهم «برنهام» الامريكى فى كتابه «الثورة الادارية» . أى ان القائمين بادارة المصانع والمزارع والمكاتب قد اخذوا فى النظام الجديد مكان المالكين فى النظام القديم، من حيث التمتع بامتيازات الأجور او الرواتب المالية وغيرها . ولكن ليس شــك فى أن حجة «ولز» ضعيفة جدا فى مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيرا من جهــده فى هذه المكافحة العقيمة ، وكان فى مستطاعه أن يتركها ، وخاصة لان موضوعه الاصلى وهو «الحكومة العالمية» لايحتــــاج الى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجــد أنهــا ضرورية للسلام والطمأنينة للافراد والامم . ومشـــاجرته هنا للماركسيين الاشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة فى ١٩٠٦ حين وقف فى الجمعية الفابية ، وهى جمعية تدعو الى الاشتراكية الســلمية التدرجية ، يدعو الى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماؤها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه ايضا ضد مبادىء ماركس ، اى ضـــد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات . مع ان هذه «الدوليات» كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى اليه هو بعد ذلك . ولكن يمكن الــدفاع عن «ولز» هنا بأنه ايقن فى تلك الســنين أن المزاج الانجليزى اقرب الى المبادىء الفابية السلمية منــه الى المبادىء الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد اربعين ســنة من مشاجرته مع الفابيين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضـــا فى تكهنه السياسى، كما سبق ان صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقدامى » ، وغايته أن يثبت أن الاثرياء والمتوسطين يجب ان يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ، لان مصلحتهم تقتضى ذلك

ولكن «ولز» سيعرف فى السنين القادمة بجهاده لاجل التوحيد العالمى . واول ما نجد هذا الاتجاه واضحا فيه فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة» وفهرست الكتاب تــدل عليــه : المستقبل المرجح للبشر . مشروع الدولة العالمية . من التوســع

الوطنى الى الدولة العالمية . انجيل الحضـــارة . تعليم البشر .
الكلية ، والجريدة ، والكتاب

وهذه الفهرست لا تحتاج الى شرح . فهو يقترح ايجاد حكومة عالمية تهيىء البشر جميعهم بتعاليم موحدة الى وطنية عالمية

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه «أعمال البشر وثروتهم وســعادتهم» وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنهـــا الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست هنا ايضا : كيف أصـــبح الانسان حيوانا اقتصاديا . كيف تعلم الانسان التفكير والتسلط على القوة والمادة . التسلط على المسافات . التسلط على الجوع وكيف يغتذى الانسان . التسلط على المناخ . كيف تشترى السلع وتباع . كيف ينظم العمل . لماذا يعمل الناس . كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة . الغنى والفقير وخصومتهما التقليدية . مهمة المراة فى عمل العالم . حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى . عدد البشر وصفاتهم . الطاقة الفائضة للبشر . كيف يعلم البشر ويدربون . طوالع البشر

ثم كتابه «اشكال الاشياء القادمة» وهو تعقيبـــات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣

واخيرا كتابه «طوالع الانسان» وقد الفه فى ١٩٤٢ . وهـــو ايضا مثل الكتاب السابق تعقيبات وشروح

وصفحات هذه الكتب الاربعة تبلغ نحو الفى صفحة كبيرة . وهى جميعها حافلة بالاحصاءات والاشارات الى دراسات أخرى

ومن هذه العجالة يرى القارىء أن «ولز» طـــراز جديد من الادباء . أجل ! هو أديب علمى ، سوف نرى فى هـــذا القرن مئات يسيرون على الطريق الذى شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجبهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهى التقدم الرائع فى العلوم المـــادية مـــع الجمود التام فى العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب فى جميـــع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطـــاقة الذرية تصـــطدم بالغيبيات ، والاختراع العلمى يصطدم بالوضع الاجتماعى

جــالزورثى

لما منحت جائزة نوبل لــ « جالزورثى » دهش جمهور الادباء او قراء الادب . فان اختيار هذا الأديب الانجليزى وتمييزه من بين جميع ادباء العالم بهذه الجائزة انسنية يدل على أن المستوى الادبى فى العالم قد انخفض قليلا . فان «جالزورثى» اديب «انجليزى» يكتب للانجليز ، ولذلك فان بصره وبصيرته محدودان بالبيئة الانجليزية ، وقلما تجد له قراء فى القارة الاوربية او فى القارة الامريكية

والاديب العظيم الآن لا يقنع بارتقاء عرش الادب فى بلاده فقط لانه هو بطبيعة العلاقات البشرية القائمة يسمو الى الامبراطورية لا الى الملوكية فى الادب . فنحن فى عصر قد صــغر اليه العالم ، واصبح على حد قول « ولز » : قريتنا الكبرى . تضطرنا الصحف فى الصباح الى أن نفكر فى الاستعمار اليابانى فى منشوريا ، وتضطرنا الازمات فى بلادنا الى أن ندرس عواملها فى انجلترا والشرق الاقصى . وقد أصبح «غاندى» وكانه زعيم وطنى لكل بلاد منكوبة بالاستعمار . واصبحت البطالة والاجور والآراء عنهما تدرس فى المانيا على ضوء الاحوال الجديدة فى الولايات المتحدة . فالامم الآن تتفاعل كما تتفاعل العناصر فى المعمل الكيماوى . ففى افريقيــا الجنوبيــة يؤسس «غاندى» «مزرعة تولستوى» . و «اناطول فرانس» يمنح ثمانية آلاف من الجنيهات (وهو مقدار جائزة نوبل التى نالهــا) لتخفيف الفاقة فى روسيا . و «برناردشو» يتكلم عن دنشواى كمــا يتكلم عنها المصرى الوطنى . و «رومان رولان» يغادر وطنه فرنسا الى سويسرا لانه ينكر عليها الحرب مع المانيا الخ

وفى مثل هذه الظروف العالمية لايمكن الانسان أن يعد أديبا من الطبقة الاولى مالم تتجاوز همومه واهتماماته وطنه الى أوطان البشر كافة . لان الاديب كالدين يجب ان يتجاوز الحدود الوطنية . ولو أن جائزة نوبل اعطيت لـ «ولز» لكان الاجماع على سداد هذا العمل عاما من جميع الامم . والفرق بين «ولز» و «جالزورثى» هو ان الاول يخدم العالم ويدرسه ويشتغل بهمومه فى الثقافة والاخلاق، بينما الثانى يقصر درسه على انجلترا

ونحن عندما نفحص عن أديب انجليزى ونتحرى بواعثه ، لا نستطيع أن نهمل رايه عن الاستعمار البريطانى . لأن هذا الاستعمار ينكب العالم نكبة واضحة كما لا نستطيع ان نهمل راى الاديب المصرى عن المراة أو الفلاح اللذين سحقتهما التقاليد . واذا نحن ألفينا فيه اهمالا أو نقصا فى درس هذا الموضوع جاز لنا أن نحكم على ضميره بالنقص . فان اديبا يرى دولته تملأ اقطار العالم بالولاة والمحافظين والمندوبين السامين كى يحكموها على الرغم منها ، ويقهروا فيها الحرية ، ويعطلوا فيها الثقافة ويحبسوا فيها زعيما من زعماء الانسانية مثل « غاندى » ، لجدير بأن يتهم فى ضميره الادبى اذا سكت . و «جالزورثى» لم يقل كلمة فى استنكار الاستعمار البريطانى ، فكان بذلك شيطانا أخرس

ولايذكر «جالزورثى» حتى يخطر بالبال « ارنولد بنيت » . فانهما يشتركان فى درس الطبقة الانجليزية المتوسطة . ولكن «جالزورثى»يدرسها ويستنكر اكبابها على جمع المال واهمال الفنون وجمود الضمير ، بينما الثانى لا يرى فيها الا كل ما يحب ويستحق الاعجاب . ثم ان «ارنولد بنيت» يعد من ابناء القرن التاسع عشر . ينزع الى الانفرادية ويؤمن بـ «هربرت سبنسر» فى المادية العلمية والنزاع الاقتصادى ، ويسلم بفضيلة الاعتماد على النفس فى الوسط الصناعى الحاضر ، ويكبر من شأن النجاح . وله كتب سخيفة فى هذا الموضوع ، يشرح فيها حياة الاغنياء وترف المال بالاعجاب

ولكن «جالزورثى» أعمق نظرا منه اذ هو يستطيع ان يرى



جالزورثى

من خلال النجاح المالى والاجتماعى خللا فى البيئة ونقصا فى الاخلاق.
وهو من أبناء القرن العشرين ينزع نحو الاشتراكية وان كان لايصرح بها. وقد رفض لقب «سير» وعطف على المظلومين سواء أكان الظلم اجتماعيا أم اقتصاديا . وهو من حيث الفن يعــد من أبرع الادباء سواء كان هذا فى القصة أم فى الدرامة.

وهو عندما يكتب يقنع بالتقرير والتصوير ولا يقترح علاجا . فقد وصف آلام المظلومين المسجونين فى درامة «العدالة» . فكان وصفه من الدقة والفظاعة بحيث استجابت له الحكومة فى اصلاح السجون ، ولكنها لم تصلح القانون الذى يبعث بالمنكوبين الى هذه السجون . ومن أعظم مشاهد هذه الدرامة مســجون قد ضــاق بحبسه وانفراده فى الخلية ، أى الزنزانة ، فأفرج عن ضيقه بثورة عصبية . اذ اندفع يخبط الحيطان ويضرب الباب بيده ورأســـه وقدمه . ثم انتقلت عدواه الى سائر المسجونين مثله ، ففعلوا فعله وهاجوا كالمجانين . حتى اذا تعبوا سكتوا كاظمين مهزومين

ثم هو يلزم الحقائق ، فلا يزوق ولا يتخيل غير الواقع . فهذه «أيرين» مثلا ، فتاة جميلة فقيرة قد تزوجت رجلا غنيا من تلك الطبقة التى تنتمى عادة الى حزب المحافظين . وتؤمن بعبء الرجل الابيض ، وتعرف الدين فى الكنيسة فقط ، ويوم الأحد فقط . اما سائر الاسبوع ، فلا تعرف غير التجارة الحرة والمزاحمة التى تجرى على سنة الحرب ، كل شىء جائز فيها . وهى تؤثث البيت بأفخر الاثاث ، ولا تعرف من الفنون غير الصور الغالية فى الثمن والكتب الضخمة المتقنة الطبع

ولكن «ايرين» تسأم هذا الزوج ، وتهجره ، وتحب مهندسا فقيرا . ثم تضطرب الاحوال المالية لهذا المهندس فينتحر . ثم تعود «ايرين» الفقيرة الى زوجها الغنى وهى صاغرة

ويسكت «جالزورثى» فلا يعظ القارىء ولا يلوم الزوج . ولا يعلق على هذه الحال اى تعليق . لانه يقنع منك بهذا التنهد الذى يضيق به صدرك عن هذه الحال المؤلمة . وأنت عندما تقرأ مثل هذه القصة تحب جالزورثى

وقد مات «جالزورثى» كهلا فى العام الماضى (١٩٣٣) ولما يبلغ الخامسة والستين . ووفاته فى هذه السن مأساة لآمال كانت معلقة به بعد أن استضاءت بصيرته بالحرب والازمة الاقتصادية

رجال الذهن فى انجلترا

ليس التجديد مقصورا على رجال الأدب من مؤلفى الدرامات وممارسى الفنون الجميلة . وان كان هؤلاء أقرب الى الجمهور وأعمق أثرا فيه من غيرهم ، لانهم يتصلون بعامته وخاصته بما يؤلفون من قصص أو يعرضون من درامات أو حتى بما ينحتون من تماثيل أو يرسمون من صور . فان هناك هيئات أخرى تعمل للتجديد . وقد تكون هذه الهيئات جمعيات ترصد نفسها لبث دعاية لأراء ثقافية خاصة ، أو قد تكون مجلات تعيش بمجهود محرريها وعطف طبقة من رجال الذهن عليها . أو قد تكون قائمة على أيدى ادباء او علماء يؤلفون الكتب فى نزعات جديدة فى الآراء الاجتماعية أو العلمية او الادبية

فهناك مثلا جمعية تدعى «جمعية العقليين» قد طبعت ونشرت الى الآن ملايين من المجلدات من الكتب التى تدعو الى التفكير الحر والاعتماد على الراى العلمى دون العقيدة الدينية . وقد كان لهذه الجمعية اعظم الاثر فى تطور الافكار بين شباب الانجليز ، بل شيوخهم . وهناك جمعية أخرى تدعو الى الفلسفة الوضعية التى يقول بها «كونت» الفيلسوف الفرنسى . وقد بقيت اكثر من ثلاثين سنة وهى تصدر مجلة ، كان يكتب فيها الاديب الكبير «فردريك هريسون» ويدعو فيها الى نوع من «البشرية» هو مزيج من الراى والعقيدة او العقل والعاطفة

ثم هناك الى هذه الجمعيات ، رجال الذهن الذين ينتمون الى العلم او الدين او الاجتماع ، فيدأبون فى نشر آرائهم التى استنبطوها

من دراساتهم . وهم يعملون لنشرها بين الجمهور بمختلف المؤلفات. واعظم مثال على هؤلاء ، ذلك اللورد العجيب الذى بهر الناس بذكائه وثقافته ، وبهدم ما يحترمونه من عقائد ، نعنى به «برتراندروسل» . فان القارىء لمؤلفاته يشعر أن «برناردشو» بالنسبة اليه يعد من الجامدين فى أشياء كثيرة . اذ هو كتب عن الامبراطورية البريطانية والزواج والصناعة والدين ، بروح اقتحامى جرىء . ولو أن أحد المفكرين فى القرون الوسطى نسب اليه كتاب واحد من مؤلفاته لكان هذا كافيا لاحراقه . وهو عالم ينظر الى الاجتماع نظرة مادية محضة . ثم هو مخلص اشد الاخلاص فى تفكيره ، اذ هو لا يعرف المداعبة فى الغيبيات العلمية التى يخرق فيها العلماء مثل «جينس» أو «ادينجتون» ويهيمون فى خلالها . ولا هو يستطيع أن يداهن الوطنيين الانجليز بكلمة مديح عن تاريخهم أو امبراطوريتهم ، اذ هو يصرح بأن هذه الامبراطورية تعوق التقدم فى العالم ، وانه ليس هناك اى مبرر لأن تغتال بريطانيا الهند أو مصر

ثم هناك مفكر آخر من رجال الذهن هو « هافلوك اليس » فانه اختص منذ اكثر من ثلاثين سنة بدرس التناسليات ، فأشاع على هذا الموضوع فيضا من الضوء الذى استخلصه من ثقافته العلمية . وهو لا يستطيع الوصول الى الجمهور ، ولكنه يهيىء الخميرة للخاصة من الادباء والصحفيين الذين يعلمون هذا الجمهور. ولايمكن انسانا يقرأ مؤلفات هذا الرجل الا أن يتأثر بها

وكل من «برتراندروسل» و «هافلوك اليس» يدعو الى التمتع بالحياة ، والى أن يعيش الانسان ملء حياته . فلا يقتر على نفسه ولا ينكر عليها لذة الذهن أو لذة العواطف . وكل منهما يعد من هذه الناحية الوارث الشرعى لدعوة النهضة الاوربية فى القرن الخامس عشر . فان هذه النهضة هى فى لبابها ، وصميم الغاية التى نشدتها ، دعوة الى التمتع بالدنيا على حساب الآخرة والاكبار من شأن الجسم على حساب الروح . ومن ذلك العصر الى الآن ، والتجديد فى أوربا سواء اكان فى الادب أو الفنون يتجه هذا الاتجاه . وعلينا



هافلوك اليس

نحن «الشرقيين» أن نعرف ذلك وندركه حق الادراك كلما أردنا أن ندرس ثقافة اوربا ، او مزاجها الادبى ، او المقصود من حركاتها التجديدية . وقد نكره نحن هذه النزعات ، وليس شك أن فيها كثيرا مما يكره . ولكن يجب الا نخدع أنفسنا عن حقيقتها فنتوهم انها غير ما تبدو لنا

ومن رجال الذهن الـذين أثروا اثرا غير صـغير فى التفكير الانجليزى القسيس «انج» . فان هـذا القسيس يرتأى من الآراء ما لو اعلن هنا فى بلادنا لعد الحادا او كفرا . ولكنه مع ذلك يحتفظ بمنصبه فى الكنيسة الانجليزية ، وهو منصب سام . وهذا برهان على مدى الحرية التى يتمتع بها رجال الدين فى انجلترا . ولم يغب عن ذهننا تلك الثورة الصغيرة التى قام بها أسقف برمنجهام (وهو دكتور فى العلوم) حين صرح بأن القربان المقدس فى الكنيسة لايمكن ابدا أن يثبت قداسته بالتحليل الكيماوى . ولا يزال هذا الرجل فى منصبه مع ذلك ، لا يجد الاحترام فقط بل يجد العطف من الجمهور الكبير

والقسيس «انج» واسقف برمنجهام كلاهما يعمل للتجديد فى الدين.وينتشر منهما روح الحرية الفكرية الى الصحف والقسيسين والخطابة . ومن هذه الوسائل الاخيرة ما يبلغ الجمهور فيؤثر فيه . ولكن ذكرنا للقسيس «انج» و لـ «برتراندروسل» فى فصل واحد قد يوهم القارىء باشتراكهما فى الأراء . ولكن الحقيقة أن الفرق بينهما شاسع ، وانما هما يشتركان فى النزعة ، اذ كلاهما مجدد فى ميدانه . وميدان الاول هو الاجتماع ، وهو ميدان حر ، وميدان الثانى هو الدين ، وهو كثير العقبات والقيود

وقبل سنوات ظهر قسيس آخر هو «هيوليت جونسون» . وقد الف عن روسيا كتابا شعبيا بيعت نسخه بمئات الالوف ودعا فيه الانجليز الى تأليف حكومة اشتراكية . وقد فسر المسيحية بأنها مذهب اشتراكى

وللمفكرين الاوربيين اثر آخر فى تجديد الفكر الانجليزى ، لا يقل عن اثر المفكرين من الانجليز أنفسهم . فان «أدلر» و«فرويد» و «برجسون» و «نيتشه» و «سبنجلر» و «كوهلر» تقرأ مؤلفاتهم بشراهة ، بل تؤسس المجلات ادرس مذاهبهم التقدمية والرجعية

وعلى ذكر المجلات نقول انها فى أنجلترا تزود المفكرين بالمواد الخام للتجديد . وليس فى العالم شىء يعمل للتثقيف بين الجمهور مثل المجلات الانجليزية الاسبوعية . فانها وان كان عدد قرائها قليلا تعيش بما تنشر على الناس من آراء سياسية ، واجتماعية ، وأدبية . وقد نجد فى انجلترا جريدة احدية ، أى تصدر يوم الاحد ، ولها من القراء مليونان ، أو ثلاثة ملايين . ومع ذلك فانها لا قيمة لها اصلا عندما تبدى رأيا فى السياسة او الادب ، بينما العالم السياسى يهتز اهتزازا اذا كتبت مجلة «اسبكتاتور» أو «نيوستيتسمان» أو «ويك اند» مقالا عن الاحزاب او احدى الخطط. وقد لا يزيد قراء احدى هذه المجلات على عشرة آلاف أو عشرين الفا

ولهذه المجلات الاسبوعية تاثير كبير ، لأن قراءها صفوة الامة ، ولهم النفوذ والسلطان فى تقرير الخطط ، وتكوين الراى

العام ، وتسويغ البدع أو استنكارها . وقد كانت مجلة «النيشن» عقب الحرب (فى ١٩١٩) قوة كبيرة فى يد محررها العظيم «ماسنجهام» . فانه هو الذى أكسب التفكير السياسى فى انجلترا روح التسامح نحو الاشتراكية ، اذ كان هو نفسه من الاحرار الذين يميلون الى حزب العمال

وهناك مجلات اخرى هى أدوات التجديد فى جميع نواحى الحياة . ونحن نضع فى المقدمة ، المجلة التى يحررها الدكتور «جاكس» نعنى بها «هبرت جورنال» . فانها مجلة دينية ، ولكنها تكتب فى البوذية والاسلام والافلاطونية والمادية . فتملأ أذهان المفكرين ذخيرة للتجديد الدينى . وهناك مجلة «نيو انجلش ريفيو» التى تكاد تقصر نفسها على الدعوة الى التجديد الاقتصادى بزيادة الاستهلاك على طريقة «دوجلاس» . ومحررها «أوراج» رجل معروف منذ ثلاثين سنة يدعو الى «نيتشه» والادب الجديد . ثم هناك مجلات صغرى ، تلتف حولها جماعات خاصة من الادباء ، وتنزع نزعات خاصة مثل «كريتيريون» و «أدلفى» فان جميع الثائرين فى الادب الانجليزى رأوا النور عقب ميلادهم فى عالم الادب فى صفحاتهما

وهذه المجلات ، ثم أولئك المفكرين الذين ذكرنا بعضهم ، هم الذين يمدون الادب الانجليزى الحديث بوسائل التجديد . واليهم يرجع الفضل فى النزعات الجديدة التى نجدها فى «الدوس هكسلى» و «لورنس» و «جويس» . لانهم يقدمون الخمائر أى المواد الخامة التى يتربى بها الاديب، يأخذها تبرا مخلوطا مشعثا فيصهرها فى ذهنه ويخرجها ذهبا ناصعا فى قصة ، أو درامة ، تستعذب وتستجمل . ولسنا نقصد من هذا الى أن الاديب لا يبحث بنفسه فى البيئة الاجتماعية التى يعيش فيها ، أو أنه لا يكسب اختباراته منها مباشرة وانما نريد أن نقول أن أدباء الانجليز المجددين تحيط بهم بيئة ثقافية صحفية تعينهم على التفكير والتجديد ، بل تحفزهم اليهما

ونحن فى مصر محرومون من هذه الخمائر الصحفية . لان

الانجليز سنوا لنا قبل نحو اربعين عاما «قانون المطبوعات» الـــذى يفرض غرامة على كل من يرغب فى انشاء مجلة أو جريدة . ولايزال هذا القانون باقيا،لأن الاحزاب تستغله فى مناواة خصومها ومنعهم من انشاء الصحف . وبذلك تأخر تطورنا وسوف يتأخر مادام قانون المطبوعات قائما يقيد الصحفى فى اصدار الصـــحف ويعاقب عـــلى اشياء تباح فى أوربا الحرة . وهذا القانون هو عارنا الابدى . فقد كنا نعده أيام الانجليز من وسائل الاستعمار ، أما الآن فهـــــو من وسائل الاستبداد المصرى ، يستعمله مصريون لمنـــع التفكير الحر فى مصر

الثـــائرون

نقصد بالثائرين اولئك الذين جاءوا عقب المجـددين وتتلمذوا لهم ، ولكنهم خطوا خطوة أخرى أبعد منهم ، وفتحوا ميادين جديدة حاول اولئك المجددون أن يفتحوها ولكنهم لم يستطيعوا لأن الزمن لم يكن قد هيأ لهم بعد اسباب الفتح

وهؤلاء الثائرون جاءوا مــدة وعقب الحرب (١٩١٩) ورأوا المدنية تضرى وتستوحش امام أعينهم ، وتهدم ما تعلموه من أخلاق او اديان . فخرجوا منهـا وقد انكروا كل شيء تقريبا . وشرع كل منهم يؤسس لنفسه ايمانا جديدا يخلص له ويدعو اليه . ولم يعد الادب عند هؤلاء الثائرين صـنعة تحتاج الى الدرس والتـأنق ، وتوخى ما يحبه الجمهور القارىء ، والوقوف على أسرار الفنــون وغاياتها،وانما هو عندهم بحث عن أرشد الطرق لان نعيش فى هناء على هذه الارض . وهم لهذه الغاية يعتمدون على أنفسهم ،ويكتبون تراجمهم أو تراجم أصدقائهم الذين عرفوهم ، فىصيغة القصـة . ولايبالون بأية لغة يكتبون . ولذلك تجد ماشئت من الخروج على القواعد ، أى قواعد اللغة ، وعرف القصة ، وأسـلوب الرواية . وانت اذا لم تكن صبورا فانك تطرح الكتاب بعد فصل أو فصلين

ولهذا اسباب كثيرة أولها واهمها ، أن هؤلاء الثائرين لايريدون التسامح فى قليل أو كثير من الخيال . فهم يقررون الواقع ، ويريدون مواجهة الحياة بكل مافيها من خير او شر . فلايبـــالى أحدهم أن يقول لك أن فى الحياة أقذارا وأن الناس يبنون المراحيض فى بيوتهم. ثم اذا عبت عليهم تفكك القصة ، أو تشتت حوادثها ، أو انهــا غير

مهذبة فى صيغتها ، اجابوك بأن الحيـــاة كذلك ليســت متناســقة ولا مهذبة . وانك اذا وقفت لحظة كى تفحص عن خواطرك وافكارك الفيتها فى غاية التشعب والتشتت . ولن تجد صــورة مهذبة لأى حادثة الا فى القصص الخيالية . وهم لا يريدون أن يرووا قصصــا عذبة لذيذة،وانما يريدون أن يترجموا الحياة الحقيقية كما يعيشونها هم أو كما يرونها فى غيرهم بدون تحلية أو تزويق

ويمكن أن نلخص العوامل التى اثرت فيهم بما يلى :

(١) ان الحرب فتقت أذهانهم لاشــك فى كل شىء حين رأوا مبادىء الاخلاق التى تعلموها لا قيمة لها أصلا

(٢) ان الامراض العصبية والنفسية التى نشأت فى المجتمع، قد أشاعت نظريات العقل الكامن عــلى طريقة «فرويد» ، وبعثت حرية جديدة فى بحث البواعث التى تبعث على التفكير وغاية الحياة

(٣) ان هــذه النظريات نفســها اكدت ضرورة التفريج عن الغريزة الجنسية والكف عن الكظم وقمع الشهوات

وهم بكلمة مختصرة قد تركوا «الادب» والتمســوا الحياة . واذا كانوا يعتمدون على القصة فذلك لانها تتسع الألوان مختلفة من وصف العيش ونقد النظر . والا فهم كثيرا مايعتمدون على المقالة. وسواء عندهم هذه أو تلك أداة لبسط آرائهم فى الدنيا والانسان

وهؤلاء الثائرون كثيرون الآن فى انجلترا منهم من نوفق الى فهمه ، ومنهم من يعتاص ويستوعر . وسنتكلم عن أشهرهم، وهم «لورنس» و «جويس» و «هكسلى» . فأما الاول فقد مات فى ١٩٣١ وهو فى زعم كثيرين رأس الثائرين وبداية العهــد الجــديد للأديب الانجليزى . وهناك من يضع «جويس» عــلى رأسهم . وكل من الاثنين يختلف عن الآخرين فى الطريقة والغاية . ولكنهم جميعا سواء فى الدعوة الى التمتع بالحياة بالذهن وبالغريزة معا

وفى كل من «لورنس» و «جويس» نجد التفاتا كبيرا الى اللذة الجنسية ، وبحثا مستفيضا فيها ، كان من اثره أن منعت الحكومة بعض مؤلفاتهم من التداول . وهما ، كلاهما ، ينغمسان فى أعمــاق

العقل الكامن حتى ليشعر القارئ لهما انـــه قد انتقـــل من قراءة القصة ، الى قراءة حادثة معينـــة من تلك الحـــوادث التى يذكرها «فرويد» فى بعض محاضراته . وقد كانت «ماري‌ستوبس» تعد قبل الحرب من الغلاة فى الدعوة الى الصراحة فى المســائل الجنســية ولكنها الآن لا تعد شـــيئا امام هؤلاء الثائرين . كمـــا ان دعـــوة «برناردشو» الى مواجهة الحياة والنـــزول عـــلى حقائقهـــا دون بهارجها وتزاويقها قد عمل بها وغلا فيها «الدوس هكسلى»

و«الدوس هكسلى» هو رجل الذهن والعلم ، وهو اقرب‌الى «ولز» منه الى الثائرين . وهو يبتعـــد عن «فرويد» والتحليـــل النفسى بقدر ما يقترب من «واطسون» فى السيكلوجية السلوكية . ويستطيع ان يهرب من الحياة بقصة خيالية عن حالة الناس عـــلى الأرض بعد مئات السنين

اما «لورنس» و «جويس» فلا يعرفان غير الواقع ، وكلاهما يجنح الى الغريزة ويضعها فوق العقل . وفى كل من هؤلاء الثائرين فجاجة هى امارة المبتدئ الذى لم ينضج

ويجدر بنا هنا ان نعرض موكب الادب الانجليزى منذ العصر الفكتورى الى الآن لنرى هل هؤلاء الثائرون يقفون فى طرف هـــذا الموكب موقفا منطقيا أم لا

فان العصر الفكتورى اتسم بالجمود ، وانساق فى ادبه الى الخيال والابهام ، كما انساق فى مجتمعه الى‌الغش والنفاق. وكلتا النزعتين ترجعان الى اصل ، هو الصدود عن الحقـــائق الواقعـــة وكراهة الحياة كما هى . وتوهمها شـــيئا آخر اسمى واجل واقوم مما هى فى الحقيقة . وكما كان هناك عرف اجتمـــاعى وعـــادات فاشية تكسو الحياة بالنفاق ، كذلك كان فى الادب عرف آخر يدعو المؤلف الى ان يتوهم الحياة وكأن ليس فيها غير ما يهواه كل الناس من حسن وسمو وجمال

وقد صمد المجددون لهذا النفاق يكشـــفونه . ولما عرفوا ان النفاق الاجتماعى هو الاصل للنفاق الادبى ، عمـــدوا الى الاجتماع

يمزقونه تمزيقا . وهذه هى مهمة «برناردشو» . وظهر «المتحطون» فدعوا فى صراحة وجرأة الى أن التمتع باللذات والشهوات ليس عيبا . وقد تورطوا بهذه الدعوة فى بعض الشذوذ

وبعد هؤلاء وهؤلاء جاء الثائرون ، وقد اصطلوا نار الحرب الكبرى فعرفوا من نفاق المدنية فى أربع سنوات مالم يعرفه أسلافهم فى سبعين سنة من العصر الفكتورى . فكانت ثورتهم أشد من ثورة المجددين

وليست الثورة مقصورة عليهم وحدهم . فان الصدود عن الوهم والخيال عظيم الآن فى انجلترا ، حيث تروج كتب التراجم للعظماء وأشباه العظماء ، كما تروج التواريخ ، رواجا عظيما . وهذا يدل على أن الجمهور نفسه يريد أن يقرأ قصصا حقيقية عن أشخاص حقيقيين ، ولا يريد وهما أو خيالا . واذا كان «برناردشو» قد قصر الادب على اصلاح المجتمع ، فأن هؤلاء الثائرين لا ينشدون من الادب سوى غاية واحدة هى البحث عن الطرق التى نستطيع بها أن نعيش امتع عيش والذه . فهم يرون اننا شغلنا عن لذة الحياة بنظريات وواجبات غريبة ، فى حين ان غايتنا الاولى يجب الا تكون الفلسفة ، او العلم ، او خدمة البشر ، او تحصيل العيش ، وانما الغاية الاولى والوحيدة هى التمتع بالحياة . وماعدا ذلك فحواش وزوائد

لورنس : أحد الثــائرين

مات « د.هـ. لورنس » منذ بضع سنوات (فى ١٩٣١) فشرع الكتاب يدرسونه ويفحصون عن الغاية التى رمى اليها . وكان طيلة حياته لايلقى سوى الاستهجان أو الاهمال ، الذى هو عند المؤلفين شر من الاستهجان

وقد نشأ «لورنس» فى بيئة العمــال ، لأن اباه كان فحــاما يشتغل فى مناجم الفحم . ولكن أمه كانت على شيء من الثقافة ، فوجهت الصبى نحو القراءة والتطلع فى الادب . وما هــو ان بلغ سن الشباب ، حتى كان يحترف التعليم فى احدى المدارس فى الريف ويراسل المجلات فيكتب القصص والقصــائد والمقالات . وقد مات وهو دون الخامســـة والاربعين . ولكن الضــجة التى اثيرت عقب موته لن تموت ، اذهى تجد من الانصار والخصــوم ، ما ســيبقى على ذكره بالجدال القائم عن مذهبه فى الادب الجديد

وقد كان لــ «لورنس» مذهب يدعو اليه لو أردنا الرجــوع لاسبابه لاحتجنا الى شرح طويل . فاننا نجد فيه مثلا ، نزوعا الى «المنحلين» . اذ هو حين يتكلم عن اللذة الجنسية يذكرنا بـ«أوسكار وايلد» وان كان هو فى الوقت نفسه سليما من الشذوذ . كما نجد فيه دعوة الى الحياة واشتهاء الملذات والتجارب ، والاكبار من شأن الجسم واللحم والنم مع اهمال النفس والاخلاق . وهذه دعوة تشبه نزعات النهضة الاوربية مع الزيادة والمبالغة . وهو مع ذلك ينظر للحياة نظرا فلسفيا يريد أن يعرف أسرارها ويتذوق أطايبها . وهو

فى هذا النظر ينتهى ، كما انتهى بعض الصوفيين من قبل ، الى اللذة الجنسية . وذلك لأن الدعوة الى الحياة كثيرا ما تسير نحو الثورة على العرف والاخلاق والذهن . والرغبة فى تحسسها وتجربة ما فيها من الم أو لذة هى فى الحقيقة رغبة فى ايثار الغريزة على الذهن . وعندئذ يلتقى المهذار المستهتر بالجاد المتفلسف فى ميدان واحد ، وان كان كل منهما يختلف من الآخر فى بواعثه

زد على هذا تعقد الحضارة القائمة ، وانها تشغلنا بشواغل وتخلق لنا من الواجبات ما يجعلنا ننسى أن انسانيتنا انما تنبت من اصل حيوانى . وان الواجب الاصلى هو أن يعيش كل منا ويتمتع بعيشه . ثم بعد ذلك يمكنه ان يتكلم عن الوطن او الصناعة او الادب او الفلسفة ، أو ما شاء من ثمار الحضارة القائمة

هذا هو «لورنس» الثائر على الادب الانجليزى ، فانه يصيح بأعلى صوته : قبل أن تهذر عن فنون الحضارة ، وواجبات الانسانية ، تذكر انى اريد أن اعيش وأبلغ اقصى ما يمكننى من ملذات الحياة وآلامها وتجاربها .. «فانى أومن بايمان عظيم هو الدم واللحم ، وهو يسمو على الايمان بالذهن»

واليك هذه النبذة المثيرة نقتبسها من بعض كلامه حيث يقول :

« ماذا يعود علينا من هذا النظام الصناعى الذى يزحمنا بأقذار فى حين لا يتمتع احدنا بعيشه ؟ اننا نحتاج الى ثورة ، ولكنها ان تكون ثورة فى سبيل المال ، أو العمل ، بل فى سبيل الحياة . ذلك ان المال او العمل شىء عرضى . انى ازداد كل يوم ثورة . ولكن ثورتى هى من أجل الحياة . وليست المادية التى يقول بها « ماركس » خيرا مما نحن فيه . لاننا انما نحتاج الى الحياة ، وتبادل الثقة حيث يثق الانسان بالانسان ، ويصبح العيش فى الدنيا شيئا حرا وليس شيئا مكسوبا وهذا العالم سيختار بين أمرين، اما القيام بحركة كبيرة للسخاء والتسامح واما انتظار الموت الكاسح »



د. هـ. لورنس

ويجب على القارىء الا يخطىء هذه الدعوة فيحسبها انانية لا اكثر . فان «لورنس» كما قدمنا صوفى ، وان كانت صوفيته أشبه الاشياء بحب «روسو» للطبيعة ، كما ترى من هذه القطعة :

« ان الانسان فى حاجة قبل كل شىء وفوق كل شىء الى ان يؤدى لجسمه حقوقه ، لانه هو الآن ، الآن فقط ، يعيش فى اللحم ويقوى به . واعظم العجائب عند الانسان ان يحس أنه حى . ومهما قيل عن الموتى والذين لم يولدوا ، وعما يعرفون ، فانهم لا يعرفون الجمال الذى نعرفه عن الحى بحياة اللحم . وللموتى أن يعرفوا ما وراء الدنيا . ولكن هذه الجلالة التى نعرفها عن الحياة والجسم ، انما نحن الذين نعرفها ، ونعرفها لمدة معينة . ويجب علينا الآن أن نرقص طربا لاننا نحيا

ونلتئم فى جسم الكون . لانى انا جزء من الشمس ، كما ان عينى جزء منى . وقدماى تعرفان انى جزء من الارض . كما ان دمى جزء من ماء البحر . وكذلك نفسى تعرف انى جزء من البشر ، وانها هى عضو حى فى النفس البشرية الكبرى ، كما أن روحى هو جزء من امتى . وفى أعماق نفسى انا جزء من أسرتى . وليس عندى شىء مستقل مطلق سوى عقلى ، ولكن ليس للعقل كيان فى ذاته . اذ هو لا يختلف من لمعة الشمس على سطح المياه

« وانفرادى اذن هو وهم ، لانى جزء من هذا الكل العظيم الذى لن أستطيع الفكاك منه . ولكن يمكننى ان انكر صلتى به حتى أعود وكأنى شظية منفصلة . وعندئذ اشقى . ونحن نحتاج الى ان نحطم الصلات الكاذبة التى تربطنا بغير الاحياء ، وخاصة تلك الصلات التى تربطنا بالمال ، ونعيد الصلات الحيوية بيننا وبين وبين الكون . بالشمس،والارض ، والناس ، والاسرة. ولنبدا بالشمس ، وعندئذ نسير فى بطء نحو الصلات الاخرى »

واذا دعا كاتب انجليزى الى الشمس فانما يدعو الى الطبيعة، لان الشمس عنده خلاء وريف وهجرة من المدن وعيش ساذج بعيد عن تكلف الحضارة

ولكن «لورنس» يستهجن عند خصومه لانه يدمن الكلام عن اللذة الجنسية . وهو قد انغمس فى الثقافة الجديدة ، وعرف شيئا كثيرا عن العقل الكامن ، وألف فيه . وهذه الثقافة الجديدة التى تعزى الى «فرويد» تنظر للذة الجنسية كأنها المحور للنشاط الانسانى ، وهى تدعو الى الصراحة فى جميع مسائل الجنس أو شهوات الرجل والمراة ، لانها عرفت ان اكثر من ثلاثة ارباع المجانين فى المارستان يرجع جنونهم الى قمع هذه الشهوات والخوف من

التصريح بها . ولذلك لا يبالى «لورنس» أن يصـف لك الجمال فى جسم المرأة وصفا يجعل الحكومة الانجليزية تمنـع قصصـه من التداول . ثم هو لا يعبث أو يلهو بالكلام عن هـذا الموضـوع ، اذ يكفى القارىء أن يعرف انه يتفق ودعوته الى التمتـع بالعيش . وهو يقول اننا نقمع فى أنفسنا الشهوة الجنسية ، أو نخاف الكلام منها ، حتى ليقف الجنسان وكأن كلا منهما عـدو للآخر . فهـو اما متوجس واما قامع . وهنا يقول :

« عليك أن تقبل وجودك الجنسى الجسمى ووجـود كل حى آخر فلا تخافه ولا تخف وظائفك الطبيعية ... فان خوفك هو الذى يقطع بينك وبين أقرب الناس اليك وأعزهم عليك . ومتى قطـع النـاس ما بينهم عادوا متوحشين قساة متهجمين . فاهزم الخوف من الجنس الآخر واعد للطبيعة مجراها »

وليس من حقنا أن نطالبه بنظام وقواعد ، فانه داعية ينبـه ويوقظ ، وعلى غيره يجب أن يقع عبء التنظيم ووضع القواعد

جيمس جويس

كان يقال مدة الحرب وعقبها (فى ١٩١٩) انه ما من انسان رأى هذه الحرب الا وقد صار غير ما كان قبلها . وهذا القول يصح على الذين درسوا «فرويد» . فانه ما من انسان درس العقل الكامن ، ووقف على خفاياه وترهاته وأمانيه ، الا وصار غير ما كان قبل ان يدرسه . لانه سيجد اننا فى حديثنا الذاتى وإحلام اليقظة والنوم ، نلتفت الى العلاقات الجنسية ونتخيل تفاصيلها بأكثر مما يجب ان يعرف الناس عنا . وجميع الادباء الذين درسوا «سيكلوجية الاعماق» التى كشف عنها «فرويد» قد اعطوا الشئون الجنسية حظا كبيرا فى قصصهم

وهذا احدهم «جيمس جويس» قد ابتدع طريقة جديدة فى القصص لانه جعل موضوعه درس خفايا النفس معتمدا على السيكلوجية الحديثة . فهو فى قصة «اوليس» لا ينقل اليك ما يقوله اشخاص القصة ، بل يصف لك خواطرهم . وهو يصفها باخلاص ، لا يهمل الشىء لانه مستكره ، ولا يسهب فى الآخر لانه محبوب . وقد قال هو عن الفن انه يجب ان يكون حرا بعيدا عما نكره وعما نحب . وكانه يصف العلم بهذا القول

ولد «جيمس جويس» فى دوبلين فى ١٨٨٢ وتربى عند اليسوعيين الذين تتفشى مدارسهم فى انحاء ايرلندا . وقد بولغ فى تربيته الدينية ، وجاءت المبالغة بالنتيجة العكسية التى تنتظر من المبالغة . لانه يعد الآن من أعداء الكنيسة الكاثوليكية

ولكن هذه العداوة تدل ، بما فيها من حدة ومثابرة ، على أن «جيمس جويس» لا يستطيع ان ينظـر الى الدين بعـين المجـانة والاهمال . وقد قيل عنه بحق أن جميع مؤلفاته لا تحتدم ولا تبلغ أقصى حماستها وغلوائها الا فى مكانين : احدهما عنـدما يعـالج جدلا دينيا ، والثانى عندما يعالج الشهوة الجنسية . وهـو فى كلا الموضوعين يجد ولا يهزل ، ويكتب وكأنه يريد التقـرير والتحقيق ولا يبالى النتيجة بعد ذلك

ولكن هذا العقل الكامن الذى يلتفت اليه كثـيرا فى مؤلفاته ، يجعله يخرج على قواعد اللغة ، فيكتب الصفحات تلو الصـفحات وليس فيها علامة من علامات الوقف أو الاستفهام او نحوهما ممـا يعرفه قراء الانجـليزية . ويتفكك الاسـلوب لان الخـواطر التى يسردها مفككة لا تتصل . وهذا هو ما ينتظر . لان اسلوبه عنـدئذ شخصى ، مبلبل ، مختلط

وكى يقف القارىء على طريقته الجديدة ، يمكنـه أن يتوقف فجاة وهو سائر فى الطريق مثلا ، ويبحث عن الخواطر التى ترد عفوا الى ذهنه . فانه امام نفسه وامام الناس يسير وكأنه احد الناس . ولكنه لو فحص عن خواطره فى حديثه الذاتى لالفاها فى غاية التبلبل والاختلاط . ولو هو عرف كيف يحللها ، لوقف منها عـلى حقيقـة نفسه ، وصميم امانيه ، ولباب الخطة التى يختطها فى حيـاته من حيث لا يدرى

مثال ذلك : لنفرض انى اسير فى الشـارع خلف جنازة لأحد الاصدقاء او المعارف . فلو تركت ذهنى ينطلق لوجدت طائفـة من الخواطر ترد الى عن الموت وهى : استلقاء على الظهـر . حـكم الاعدام . ورد على النعش . نتن فى الفم . نوم . انتفاخ البطن . ظلام . «فولتير» . لشبونة . زلزال . باب القبر . جرس الميت . فئران . صـندوق . احـراق الجثث . «سـبنسر» . ماديـة . «برجسون» . . الخ

فكل هـذه الخواطر ترد وتتصـل فى ذهنى . ولكنهـا امام



جيمس جويس

القارىء مفككة قد تغيب عنه دلالتها ، لانها شخصية خاصة بشخص أنا . ومن هنا الصعوبة فى قراءة «جيمس جويس» لانه يصف لنا حياة الذهن ، ويكشف عن مخابىء العقل الكامن . ويضطره هذا الموقف الى أن يذكر لنا تلك الخواطر الجنسية التى تمر فى ذهن الشاب أو الفتاة ، كما يذكر لنا فيما لا يقل عن صفحتين تلك الخواطر التى تمر بذهن احد الاشخاص الذى يدخل المرحاض عقب امساك . فهو يتريث ، ويتلبث ، وكأنه يلتذ التخلص من امساكه

وأحسن قصصه هو قصة «أوليس» التى يصف فيها يوما واحدا من أيام حياته فى أكثر من ٧٥٠ صفحة . وهذا الاسهاب يرجع الى انه يعنى بخواطر العقل الكامن فى حالى الصحو والسكر . فيصف لنا بطل القصة وهو يحضر جنازة صديق . ثم وهو فى مطعم . ثم يصفه وهو فى ماخور دنس بين الخمر والبغايا . ثم فى منزل صديق . ويسهب فى وصف الخواطر الجنسية لاحدى النساء اسهابا يبلغ حد البشاعة . والقصة تبتدىء من الساعة الرابعة بعد الظهر وتنتهى فى الساعة الثانية او الثالثة من الصباح

واليك هذه القطعة التى يصف فيها دخول بطـل القصـة فى المطعم :

« كان قلبه يدق عندما دفع باب المطعم . وكان قد ادرك انفاسه صنان من العيارة الحريفة للحموغسالة الخضروات . هاهى الحيوانات تأكل

« رجال . رجال . رجال

« قعدوا على مقاعد عالية الى المشرب وقبعاتهم قد نحيت الى الوراء . وقعدوا الى الموائد يطلبـون الخبز . الخبز مجانا . مجانا . يشربون ويلتهمون لقما ضخمة من اطعمة تعوم فى المرق ، وقد جحظت عيونهم، وأخذوا يمسحون شواربهم . وهنا شاب شاحب ، له وجه كشحم الثرب يمسحكوبه وشوكته وسكينه وملعقته بالمنشفة . مجموعة جديدة من المكروبات . وهنا رجل قد علق على صدره منشفة اطفال قد لوثتها الصلصة وهو يغترف الحساء ويصبها فى بلعومه . ورجل يبصق فى طبقه : غضروف لم يتم مضغه . ليس له اسـنان للمضغ . طرف جامد من اللحم المشـوى ، يبلعه كى يتخلص منه . لهذا السكران عينان حزينتان ، قضـم قضمة لا يمكنه أن يمضغها . هل انا كذلك ؟

« كما يرانا غيرنا . . . »

فهنا يرى القارىء رواية الحوادث تختلط بخواطر الذهن : حوادث موضوعية خارجية تختلط باحساسـتنا الذاتية الداخلية . وليس هنا فى هذا الذى نقلناه ما يستبشع أو يغمض فهمـه على القارىء ، ولكنه فى أمكنة اخرى لايبالى أن يصف ديدان العقل الكامن وهى ترقص فى النتن

وليس « جيمس جويس » أول من عالج الخواطر الذهنية ، فان كثيرين من القصصيين عالجوها فى الحديث الذاتى ، حـين يكلم الانسان نفسه ويحلم فى اليقظة . لان هذه الخـواطر هى حديث

الانسان لنفسه . ولكن « جيمس جويس » جعلها موضوع القصة الاساسى ، ورواها على أصلها بلا تنقيح أو تهذيب

و « جويس » متشعب الثقافة ، يعرف النروجية وقد درس « ابسن » فى هذه اللغة . وعاش فى فرنسا ، وتقلب بين عواصم أوربا . واذا شك الانسان فى القيمة التجديدية لمؤلفات «لورنس» أو « هكسلى » فانه لا يستطيع أن يشك فى هذه القيمة عنده . وهذا بالطبع لايعنى الثناء عليه . فان طريقته تحتاج الى أن يصهرها النقد من جهة ، ويحكم عليها الجمهور من جهة اخرى ، ان اقبالا وان نفورا

الدوس هكسـلى

يمكن الذين يؤمنون بالوراثة أن يؤيدوا ايمـــــانهم بمثال « الدوس هكسلى » . فان والده « هكسلى » الكبير ، ذكر اسمه مقرونا الى اسم « داروين » . ولولا دفاعه عن نظرية التطـــور ، وجهاده فى الدعوة اليها ، لما اكتسبت هذه النظرية كل ما اكتسبته من أصدقاء وأعداء . وكذلك أخوه « جوليان » فانه يعد من أعظم الدعاة الى العلم ونشره بين الشعب . وقد شارك « ولز » فى كتابه الشعبى الضخم « علم الحياة »

ولم يبلغ « الدوس » الاربعين من عمره (فى ١٩٣٣) . ولكن اسمه ذائع الان بين جميع الاوساط الراقيـــة . وثورته على الادب القديم ، او على الادب فى العصر الفكتورى ، هى ثورة الذهن . فان الرجل يكتب فى الأدب بالروح العلمى . وهـــذا خلاف «لورنس» أو « جويس » اللذين يضعان الغريزة فوق الذهن

ولـــ « الدوس هكسلى » جولات فى الفلسفة والنقد تنبىء عن ميله العلمى واعتماده على ذكائه وتعمقه فى الثقافة . وقلما يقـــرأ له الانسان فصلا فى النقد ، أو قصة قصيرة أو كبيرة ، الا ويبهـــره ذكاؤه ونشاطه الذهنى . ولكنه لهذا الذكاء نفسه يميل الى الهـــدم اكثر مما يميل الى البناء . وذلك لانه يجد أشـــياء كثـــيرة تحتـــاج الى الهـــدم

والقارىء لقصصه يذكر « ولز » فى وصف الاشخاص وطريقة الرواية ، كما يذكر «شو» فى النزاهة الذهنية . فانه يجعل العلاقة بين القارىء وبطل القصة حميمة ، حتى لتثبت الصورة وتمثل من

آن لآخر كأنها صديق قديم قد عرفنا خصاله وأحواله منذ سنوات . وقد كان يقال عن « تولستوى » الاديب الروسى أنه يمكنه أن يصف للقارىء عقل الحصان . وهذا احسن مايقال فى التنويه بقــــدرة الكاتب . ولكن كلا من « ولز » و « هكسلى » يمكنه أن يصـــف عقل الطفل ، ويجعلنا نحبه ونذكره كأنه ليس طفل القصـــة بل طفلنـــــا نحن

والحق أن المشابهة بين « واز » وبين « الدوس هكســلى » كبيرة جدا . فكلاهما موســـــوعى الذهن ، يدرس الادب والعلم والتاريخ بل يدرس الاكولوجية والقالبيات والهيدروبونية

اما فى الحوار والنقد ، فان أثر « برنارد شو » واضــــح فيه . فانه يؤمن بالحرية ويبالغ فى الايمـــان بها . ثم هو أحيـــانا كثيرة يندفع بالحماسة من الفن الى الدعاية . وهذا الاندفاع ليس مقصورا على «الدوس هكسلى» فانه يكاد يعم جميـــع المجـــددين والثائرين من الانجليز . فان الطبقة الجديدة من الشبان الادباء مثل «ت . س . اليوت» أو «مدلتن موراى» يدعو الى الشيوعية . ولكل منهما مجلة لهذه الدعاية

وواضح انه فى أطوار الانتقال يستحيل الادب الى الدعاية . الأديب يأخذ فى تقرير القواعد الجديدة ونقض المبادىء القديمة .وقد يفنى عمره فى تحقيق هذه الغاية قبل أن يستقر الجـــديد وينقض القديم . ولكن هذا الاستقرار نفسه اذا لم تزعزعه نزعات جديدة قد ينتهى الى جمود . ولذلك يجب أن نقول ان فى كل أدب حى بذرة من الدعاية . وخاصة فى ايامنا هذه حيث تسير التطورات الاجتماعية فى هرولة عجيبة

ويتفق « الدوس هكسلى » مع سائر المجـــددين والثائرين فى درس السيكلوجية الحديثة ، ولايفوته التحليـــل النفسى فى كثير من المواقف والاحوال . فان المرأة التى تقبل الطفل تذكر حبيبها وقبلتـــه وغنائه ، كما ترى من هذه القطعة :

« ثم تذكرت الطفل فجأة ، والتفتت اليــــه باندفاع



الدوس هكسلى

العاطفة وقبلت خده المستدير،وقد علته حمرة الخوخ. وكانت البشرة ناعمة باردة كأنها ورقة الزهرة . وتذكرت زوجها ، فتخيلته وهو يقبلها عندما يعود من عمله الى البيت . وهذا المساء عند ماتقعد هى كى تخيط ، يكون هو قد قعد قبالتها يقرأ تاريخ «جيبون» عن انحطـاط الدولة الرومانية بصوت عال . انها لتعبده وهو قاعد امامها يقرأ فى نظارته . . . وذكرت قراءته ، وكيف ينطق

يبعض الكلمات فاستعادت ذكراها وشعرت برغبة حادة لو انه كان الى جانبها الآن فتطوى ذراعيها على عنقه وتقبله ... »

وكل هذه الخواطر انما وردت عقب تقبيلها للطفل . ولو كان « جيمس جويس » هنا فى هذا الموقف لذكر كل هذه الخواطر ثم زاد عليها حتى يفضح العقل الكامن كله

ولـ « الدوس هكسلى » مقال عن أزياء الحب يعبر الى حد ما عن طريقته فى معالجة القصص ، وعن رايه فى أحرج المواقف القصصية . وهو لا يبعد كثيرا عن « برتراند روسل » وان كان لا يصرح بكل ما يقوله هذا العالم الاجتماعى . فهو يرى أن للحب ازياء كما للملابس . ولكن أزياء الحب اغمض . والزى الشائع الآن هو نوعان يتصارعان . احدهما ذلك الحب الامثل الذى ورثه الفتى والفتاة عن ثقافة المسيحية والقصص الخيالية . والآخر هو ذلك الذى اكتسباه عن السيكلوجية الحديثة . والاول يعمل لملازمة العرف والعادة . والثانى يعمل لالغائهما . وقد ساعدت الحرب على تفشى النوع الثانى ، فجاءت نظريات «فرويد» لتبرير الواقع ، وليس للدعوة اليه . فان الشبان يتكامون الآن عن الضرر الناشىء من قمع الشهوات ، وضرورة التفريج والتنفيس واكتساب الخبرة بالتجربة

وقد كان «دوموسيه» يقول : «انى احب واريد ان اذوى . انى أحب وأريد أن اتألم »

والشاب والفتاة لايريدان التألم وانما يريدان التمتع . ولكن المبالغة فى التمتع تعود انغماسا أو تهالكا ، لا يقتل الشهوات فقط، بل يتلف، على المرء اللذة نفسها . والمبالغة فى الحرية كالمبالغة فى فى التقييد سواء . ولذلك يرى « الدوس هكسلى » ان الزى الحاضر للحب سوف يزول ، لأن الحب الذى سهل تحقيقه ليس عظيم القمة . وفى التاريخ مايدل على أن الناس حين ترخصوا فى الحب وأباحوه ، واستهتروا ، عادوا وقد أنفوا واستنكفوا الى

ما يشبه الزهد والانكفاف عن الشهوات . ولكنه يرى هنا الحاجة الى ايجاد الزواجر النفسية التى تعمل للقمع وتحول دون الاباحة . وهو لايؤمن بالزواجر الدينية التقليدية ، فهو لذلك يخترع زواجر جديدة ويقول اننا يجب أن نؤمن بما يسميه « الشخصية الانسانية» وأن ننشأ على احترامها ، ونربى أبناءنا على أن يجدوا منها وفيها تلك القيود التى كان آباؤنا يجدونها فى الاخلاق التى ورثوها عن المسيحية والقصص الخيالية

وانت اذن ترى أن العقدة التى تشغل بال «الدوس هكسلى» هى العقدة الدينية . وانه من هذه الناحية بشرى مثل «ت . س . اليوت» زعيم البشرية فى انجلترا والولايات المتحدة . ولكن «اليوت» مع بشريته هذه رجعى تقليدى ، يكتب كأنه من أبناء القرن الثامن عشر ويعمى عن أضواء القرن العشرين

والحق الذى لا يمكن انكاره انه ليس فى انجلترا أديب يؤبه به الا وللدين أكبر مكانة فى ذهنه ، سواء فى ذلك المجدد أو الثائر والشاب أو الشيخ . وقد يعد القارىء بعض هؤلاء الأدباء كفارا أو ملحدين لأنهم يعارضون المذهب السنى للدين ، ولكنه لا يتمالك مع ذلك من الاعتراف بأنهم يجاهدون ، ويستنبطون الأفكار والآراء كى يقنعوا أنفسهم وغيرهم بأنهم يقفون من الكون موقف الاخلاص والاجتهاد للخير العام

الشاعر تـ . سـ . اليوت

اكتب هذا الفصل فى سنة ١٩٤٨ عن هذا الشاعر الذى لم يكن بارزا فى وجدانى فى ١٩٣٣ حين خرجت الطبعة الأولى من هذا الكتاب

و «اليوت» امريكى المولد والنشأة . ينتمى الى احدى الاسر الأمريكية التى تعتز بأصلها من حيث ان لها فضل السبق فى الهجرة من انجلترا الى أمريكا قبل نحو ٣٠٠ سنة . وهذه الاسر تقطن الاقاليم الشرقية من الولايات المتحدة ، وتتوارث تقاليد المحافظين من حيث السياسة أو الاجتماع ، كأنها تقاليد النبالة والشرف

وقد تعلم «اليوت» فى احدى الجامعات الامريكية ، ثم رحل الى باريس المدينة الفنانة ، بل عاصمة الفن الاوربى . وهناك عرف النزعات الجديدة من الشعراء : «بودلير» و «فرلين» و «رامبو» كما عرف أيضا النزعات الاوربية الأخرى التى لا يمكن احدا فى أية عاصمة ان يقف عليها ما لم يكن فى باريس

وفى الفترة التى تقع بين الحربين ، أى بين ١٩١٩ و ١٩٣٠ ، عم القلق أوربا . وخاصة عندما خاض «موسولينى» فى دم الديمقراطية بقتل «ماتيوتى» وغيره من الديمقراطيين الاشتراكيين . وزاد هذا القلق عقب الثورة السوداء التى قام بها «فرانكو» فى أسبانيا واستعدى فيها الطائرات الايطالية والالمانية لضرب المدن الاسبانية . وحاول الديمقراطيون والاشتراكيون أن يعقدوا جبهة فى أوربا ضد هذه الثورات السود فى ايطاليا واسبانيا والمانيا . ولكنهم فشلوا . واخذت كل من اليابان وايطاليا والمانيا تعربد فى عصبة الأمم

ووجد الأدباء أن المثليات والآمال والاهداف التي كانوا يتجهون اليها ويدافعون عنها قد انهارت،حتى قالت «فرجينيا وولف» الاديبة الانجليزية أن البرج العاجي الذى كان رمز أدباء القرون الماضية الكلاسيين قد استحال الى «البرج المائل» الذى يعيش فيه أبناء القرن الحاضر والذى يوشك أن يسقط بهم كما يوشك ان يسقط برج بيزا فى ايطاليا

وعم التشاؤم جميع الادباء . وكان اول المتشائمين ، او اكثرهم نعيبا ، هو هذا الشاعر الامريكي «اليوت» الذى استقر فى لندن . وقد اخرج فى ١٩٢٥ «الأرض الخراب» . وهى أحاديث النفس ، نفس الشاعر الذى انكشف عنه الوهم : وهم الحضارة والثقافة والدين والانسانية والشرف . والفى نفسه،ليس فى حيرة قد تسفر عن يقين ، بل فى يأس مظلم لا يرى فى خلاله اى بصيص للرجاء . ذلك أن القيم الاخلاقية قد فسدت ، بل تعفنت ، ولم يعد الانسان الانساني قادرا على أن يعيش فى شرف أو ينصب نفسه لمجد . فالناس يتمتعون برخاء المادة ، ولكنهم يتمرغون فى فقر الروح . وقد عمد «اليوت» بهذا اليأس الى الهروب من الواقع المؤلم ، فانطرح على ابواب الكنيسة الكاثوليكية ينشد السلام والطمأنينة لنفسه القلقة . كما فعل من قبل «بيلوك» و «تشسترتون» . فهو نافر من العصر الحاضر يحن ، بل يوحم ، الى القديم . ولكنه فى هذا الحنين او الوحام يخرج من الفقر الى البلقع

انظر الى قوله فى «الأرض الخراب» :

«We are the hollow men	« نحن الرجال الفارغون
We are the stuffed men	نحن الرجال المحشوون
Leaning together,	نتساند
Headpieces filled with straw, Alas.	ورءوسنا محشوة بالقش. واأسفا

«Our dried voices, when
we whisper together
are quiet and meaningless.

« واصواتنا الجافة ، عندما
نتهامس معـــا
تكون هادئة وبلا معنى

«Between the idea and the reality
Between the motion and the act,
Falls the Shadow.

« بين الفكرة والحقيقة
بين الحركة والعمل
يقع الظل

«Between the conception and the creation,
Between the emotion and the response,
Falls the Shadow».

« بين التوهم والخلق
بين العاطفة والاستجابة
يقع الظل »

او انظر الى قوله :

«I am tired with my own life,
And the lives of those after me.

« لقد تعبت من حياتي
وحياة أولئك الذين سيعقبونني

«I am dying my own death, and the
deaths of those after me.

« وانا أموت ميتتي وميتة أولئك
الذين سيجيئون بعدي

«Let Thy servant depart,
Having seen Thy salvation.

« خل عن عبدك يارب كي يرحل
بعد اذ رأى خلاصك

« وجاءتني كلمة الله وهي تقول :
«The Word of the Lord came unto me, saying

« ايتها المدن التعسة التي انشأها رجال مدبرون
«O miserable cities of designing men.

« أيها الجيل التعس المؤلف من
رجال مستنيرين
«O wretched generation of enligtened
men



ت . س . اليوت

«Betrayed in the mazes of your porper ingenuities

« لقد أوقع بكم فى تيه براعتكم »

«Sold by the proceeds of your proper inventions

« ولقد صرتم تباعون بما كسبتم من مخترعاتكم »

«I have given you hands which you turn from Worship...»

« أعطيتكم الأيدى التى تحولتم بها عن العبـــادة ... »

ولكن «اليوت» بهذا اليأس يبين لنا انه يتكلم بلســـان الطبقة التى نشأ منها ، طبقة المحافظين الامريكيين الذين يمارسون فضائل الاستقامة ، ويتجنبون السجون ، لأنهم أغنياء عن الجريمة بما لهم من مال وثراء . وهو يعجز عن مجابهة العصر الحديث ، ولا يطيق

رؤية الشعب وهو يحاول بلوغ القمة الديمقراطية . وبكلمة اخرى نقول أن «اليوت» يعمى عن رؤيا القرن العشرين . لأنه لا يرى غير الحضارة الآلية التى تكاد تخنق البشر بقوتهـا وجبروتها . ولكنـه ينسى ان هذه القوة او الجبروت كان يمكن بتغيير النظام الانتاجى أن يكونا فى خدمة الانسان

أما من حيث الأسلوب فان «اليوت» يشبه «جيمس جويس» فى التعبير عن التتابع العاطفى ، اى أحلام اليقظة ، أو الخـواطر المطلقة . ولكنـه يختلف من «جويس» من حيث أن هـذا رومانتى طليق لا يبالى التقاليد ، أما «اليوت» فيعد من الكلاسيين التقليديين . ونزوعه الى الكاثوليكية يتناسق مع نزوعه الى التقاليد . ومع ذلك نجد فى «اليوت» سمة عصرية ، هى أن شـعره لا يعرف الطبيعـة او الريف او الحياة الساذجة الفطرية . فهو شعر المدينة ، بل شعر النادى والشارع والمقصف والمصنع . وعنده أن المجتمـع الأمثل هو المجتمع المسيحى . ولكن ما هو هـذا المجتمـع المسـيحى ؟ فان الاشتراكى فى موسكو ، يستطيع أن يصفه وصفا مخالفا كل المخالفة لما يصفه به الديمقراطى فى لندن او نيويورك

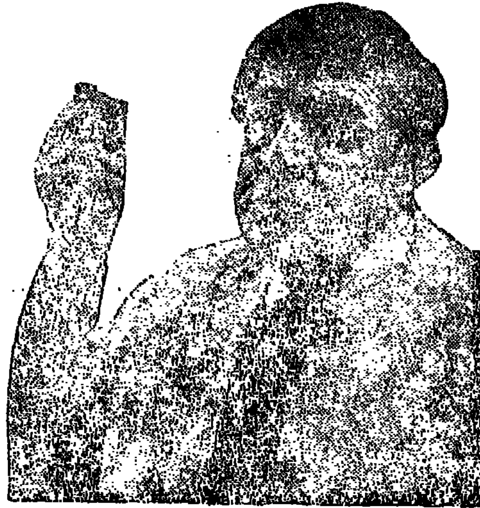
وخلاصة القول أن «اليوت» يؤلف قصائده كى ينـدب العصر الحاضر ، عصر الديمقراطية والاشتراكية ، الـذى لا يستطيع أن يعيش فيه لأنه يعجز عن التخلص من الأخلاق التى ورثها من طبقته فى الاقاليم الشرقية للولايات المتحدة . وهـو مـع انه يتكلم بلغـة العصريين ، فانه يحس احساس التقليديين ، كمـا يفكر بعقولهم . وقد رأى حربين عالميتين فلم يخرج منهما ملهما بسخاء بشرى يدعو الى الاتحاد العالمى . ولم يبصر من خلالهما رؤيا الانسان القادم الذى لن يبالى تلك الانانيات الصغيرة بشأن التفاوت فى الثروة والتفاخر بالرياش وأبهة الألقاب . ومن هنا تشاؤمه الذى يطغى على ذهنه كما لو كان طوفانا وظلاما

الشــاعر اودين

نحن نعيش فى عصر الانتقال من نظام المباراة فى الانتاج الى نظام التعاون ، اى من الانفرادية الى الاشتراكية . وهذا الانتقال يجد من العراقيل والصعوبات ما راينا اماراته فى قيــام الحكومات الفاشية فى اسبانيا وايطــاليا والمانيا وبرتغــال وارجنتينــا . فان الطبقات التى انتفعت ، واثرت ، وتسلطت بالمباراة ، لا تســتطيع أن تنظر بالرضى والارتياح الى الانتقال الى التعــاون ، حين تقــوم المساواة مقام التفاوت . لأنها هى التى تنتفع بهذا التفاوت . ولذلك راينا هذه الطبقات لا تبالى تحطيم دساتيرها وجحد النظم الديمقراطية كى تنشىء ديكتاتوريات تمنع التطور الديمقراطى من الوصــول الى غايته المنطقية وهى النظام الاشتراكى

ومن هنا أصبح الاديب مكافحا . يكافح من أجل هذا الانتقال . واحيانا لا يكافح بقلمه فقط ، بل يعمد الى بندقيته ويغادر وطنه الى اسبانيا مثلا حيث يقاتل الى جنب الجمهوريين ضد الديكتاتور فرانكو

ولكن يجب أن نعترف ان عصر الانتقال هذا الذى نعيش فيــه لم يحل جميع الادباء الى مكافحين . فقد راينا مثلا الشاعر «اليوت» يحاول الاستمســاك بالكلاسية القديمة فى الاخلاق والاجتماع والدين، مع انه يستعمل اساليب «الانتقاليين» . فهو بمثابة الفلاح الــذى يزرع خمسة افدنة بالطرق العصرية ، ويعيش فى منزل يمتاز بجميع الوسائل العصرية الكهربائية فى الاضاءة والطبخ والتبريد والتدفئة ثم ينعى على العصر الحديث آلاته وأدواته التى يتمتع هو نفســه بها . وكأن كل ما يقصد اليه أن يستأثر هو بها ويحرم غيره منها



آودين

ثم هناك غير هؤلاء التقليديين جماعة المترددين الحائرين الذين لا يجدون مراسيهم فى وسط هذه الفوضى الانتقالية . ونحن نجد أحيانا فى «اليوت» نفسه مثل هذه المواقف الحائرة

ثم هناك البصراء الذين رأوا رؤيا المستقبل ، وفهموا القوات الجديدة ، وارتفعوا الى مستواها الانتاجى ، فأصبحوا مكافحين تغمر الافكار الاشتراكية جميع جهودهم . ومن هؤلاء الشاعر «اودين» الذى لايزال فى بداية العقد الخامس

وحياة هذا الشاعر توضح لنا العوامل الثقافية التى تسود وتتسلط على الادباء المتمدنين هذه الايام . فقد كان أبوه سيكلوجيا يتكسب بتحليل المرضى . ونشأ «اودين» فى هذا الجو فتعرف لغته وتفهم هموم المرضى . وهى هموم العصر التى تنشأ من المباراة القاتلة ، وما تحدث من مطامع ومحاسد ومخاوف . لأن الطمأنينة تكاد تكون معدومة حتى بين الاثرياء فضلا عن الفقراء

ونجد فى اشعار «اودين» كثيرا من كلمات السيكلوجية والعقل الكامن . فهو فرويدى كما هو ماركسى . ولذلك بينما نجد يأسا مخدرا عند «اليوت» نجد أملا منعشا عند «أودين» ، هو امل الاشتراكية القادمة . ولكنه أمل ترافقه دعوة الى الكفاح . وهو ينغمس فى العلوم والآداب والفلسفات بمثل الهمة والشوق ، بل اللهفة ، التى ينغمس بها «ولز» أو «هكسلى» . وقد غادر وطنه انجلترا الى الولايات المتحدة كى يدرس الحضارة الراهنة فى أعلى طراز بلغته ، ويعرف عيوبها وميزاتها . وهو كما قلنا اشتراكى ماركسى . وأساس اشتراكيته هو درس الحضارة الراهنة . وزواجه هنا بابنة «توماس مان» الاديب الالمانى الذى فر من ألمانيا عقب تسلط النازيين عليها له معناه بشأن البيئة الثقافية التى يعيش فيها ، بل معناه ايضا بشأن المستقبل الذى يرسم خارطته فى أشعاره

واعظم ماتمتاز به اشعار «أودين» هو الاحساس العميق بأننا قادمون على مستقبل يحفل بالمشكلات ، ويحتاج الى ألوان من الكفاح السياسى والاجتماعى والادبى . ولغته تكتظ بالتعابير العلمية والسيكلوجية . وهذا غير اللاتينية أو الفرنسية أو أية لغة أخرى . لأن «اودين» أوربى قبل أن يكون انجليزيا . وتفكيره عالمى قبل أن يكون وطنيا . بل الحق انه ليس وطنيا فى اية عاطفة من عواطفه . وهمومه ، قبل كل شىء ، هى هموم الانسان «الانسانى» الذى يحس مأساة التعطل فى الولايات المتحدة كما يحس الشقاء الاسود الذى يعيش فيه الهنود تحت أقدام الانجليز . وقد قلنا أنه يشبه «الدوس هكسلى» من حيث الانغماس الثقافى والدراسات العميقة ، ولكن يجب ان نقول أنه يختلف منه كثيرا من حيث أن «هكسلى» يدعو الى اتخاذ موقف منفصل من المشكلات البشرية ، كأنه يقول بصوفية علمية للقرن العشرين . كأن الأديب يجب أن يكون راهبا يرى المجتمع ولا يشترك فيه . وقد يحكم عليه ، ولكن دون أن يدخل فى كفاحه . اما «أودين» فينغمس فى المجتمع . واشعاره هى اشعار السياسة والسيكلوجية والتطور والاشتراكية وحرب الطبقات

وكفاح الاشــــتراكيين للديكتاتوريين : كفـــاح المتعطلين للمـــاليين والصناعيين

وفيما يلى ابيات اظن من الأليق ان نتركهـــا بلا ترجمـــة للذين يعرفون الانجليزية (*) وهى تدل القارىء عــــلى النفس الاودينية ومدى انبســاطها وتعمقها فى همومها ومعارفها :

«Around me, pausing as I write, A tiny object in the night,	« يقف حولى بينما اكتب ، جسم صغير فى الليل ،
«Whichever way I look, I mark Importunate along the dark Horizon of immediacies	« اينما نظرت ، الاحظ لجاجته فى الافق المظلم القريب
«The flares of desperation rise From signallers who justly plead	« يعلو وهج اليأس من اشارات متوسلة بحق
«Their cause is piteous indeed: Bewildered, how can I divine Which is my true Socratic Sign,	« غايتها محزنة جدا محتار ، كيف لى أن اتكهن بعلامتى الحقيقية عند سقراط ،
«Which of these calls to conscience is For mine the casus foederis,	« اى نداء يلبى ضميرى ويحتاج منى الى بحث ،
«From all the tasks submitted, choose The athlon I must not refuse.	« فى كل الواجبات المتاحة ، اختار ولا استطيع ان ارفض غار النصر ،
«A particle, I must not yield To particles who claim the field,	« ذرة ، لا افرط فيها امام ذرات اخرى تريد الانفراد بالميدان ،

(*) ترجمت القطع الثلاث فى هذه الطبعة بمعرفة الناشر

« ولا آمن للمهرج الذى يهذى ،

«Nor trust the demagogue who raves.	
A quantum speaking for the waves,	فهو قذر يتحدث للامواج ،
«Nor worship blindly the ornate	« ولا انحنى عشوائيا للزخرف
Grandezza of the Sovereign State.»	عظيم الدولة السامية ».

اسهل من هذه الاشعار ، هذه القطعة التالية عن «الحب» :

«Love has no position.	« ليس للحب اوضاع ،
Love's a way of living.	فالحب طريق الحياة
«One kind of relation	« نوع واحد من العلاقة
Possible between	ممكن بين
Any things or persons	الاحياء او الاشخاص
«Given one condition,	« ولو كانت هناك شروط ،
The one sine qua non	فالشرط الوحيد
Being mutual need.	هو الحاجة المتبادلة »

وهذه القطعة التهكمية التالية واضحة . وهى ارتجال الشاعر او بديهته التى يستخدم فيها ثقافته الزاخرة بالكلمات المختلفة . وهو هنا يأسى على الجو السيىء والطعام السيىء (المحفوظ فى العلب)

«Come to our bracing dessert	« هاك حلوانا المفضلة
Where eternity is eventful,	التى تزيد أعمارنا
For the weather-glass	وآسفا ، لقد ضبط
Is set at Alas,	البارومتر والترمومتر على
The thermometer at Resentful.	درجة الاشمئزاز

«Come to our well-run dessert	« هاك حلوانا الجميلة
Where anguish arrives by cable,	حيث الكرب يجئ بالبرق
And the deadly sins	والخطايا المميتة
May be bought in tins	يمكن شرائها فى العلب
With instruction on the label»	وطريقة الاستخدام على بطاقة كل علبة »

ولا يزال «اودين» فى بداية العقد الخامس . ولذلك فان المستقبل ينفسح امامه لتطورات ذهنية واساليب ادبية مختلفة

فهرس

صفحة

مقـــدمة ٣
التجديد فى الأدب الانجليزى ٩
جمـود العصر الفيكتورى ١٧
التفسير الاقتصادى للأدب ٢٣
الرجعيون الثـائرون ٢٧
بواعث التجديد ٣٣
بعض الأجـانب واثرهم فى الأدب الانجليزى ٣٧
اثنان من الرواد ٤٥
المنحطون فى الأدب الانجليزى ٥١
كبلنج : شاعر الاستعمار ٥٧
دراسة الاقتصاد فى الأدب الجديد ٦٣
برنارد شـــو ٦٧
الدرامة الاجتماعية ٧٣
فلسفة برنارد شو ٧٧
من داروين الى برجســون ٨٣
ولـــز ٨٩
دراسات ولز لاجتماعية ٩٥
ولز بين الوطنية والاجتماعية ١٠١
بعـد وفاة ولز ١٠٥
جـالزورثى ١١٥

صفحة

رجال الذهن فى انجلترا ١١٩
الثــائرون ١٢٥
لورنس : أحد الثائرين ١٢٩
جيمس جويس ١٣٥
الدوس هكسلى ١٤١
الشاعر ت . س . اليوت ١٤٧
الشاعر أودين ١٥٣

مطبعة دار العالم العربى

٣٢ شارع الظاهر بالقاهرة ــ تليفون : ٩٠٦٧٠٦